من أدب الرحلات

د. عماد الدين خليل

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

أدب الرحلات كالسيرة الذاتية شحيح هو الآخر في مكتبتنا الإسلامية ، رغم أن أجدادنا قدموا فيه الكثير.

كانوا يجوبون الآفاق على ظهور الجمال والبغال ، او صهوات الخيول ، ويهدرون أعمارهم المحدودة قبل ان يؤوبوا إلى ديارهم لكي يعكفوا على تدوين رحلاتهم ويقدموا للأجيال حصائد تجوالهم المترع بالرؤى والخبرات.

ونحن اليوم نختزل الزمن ، فتنقلنا وسائط النقل السريع من مكان إلى مكان في يوم او بعض يوم ، وهي تطوي المسافات ، وتضع بين أيدينا (بانوراما) البلدان والشعوب ... وما هي الا ان نحفز ذاكرتنا قليلا ، ونستجيش مخزونها لكي نحيل (التجربة) إلى لون من الإبداع الأدبي تتوق إليه جماهير القراء ربما أكثر مما تتوق إلى الألوان الأخرى من الآداب والفنون.

هاهنا يجد المرء نفسه قبالة المؤرخ والفنان معا ... القدرة الدقيقة على الالتقاط والتسجيل .. والرؤية الانطباعية التي تعرف كيف تتلقى المرئيات وتتعامل معها بأقصى درجات الحساسية والصفاء.

فأدب الرحلة ليس بحثا في التاريخ ولا وصفا جغرافيا .. كما انه ليس قصة قصيرة ، او رواية ، او قصيدة شعر ، وإنما هو هذا وذاك ومن ثم يكتسب خصائصه المتميزة وطعمه العذب ... وقدرته في الوقت نفسه على تلبية مطالب المؤرخين والجغرافيين والأدباء الذين يطمحون لمعاينة الوقائع وسبر غورها العميق.

انها حركة في الطول والعرض والعمق ... تجوال في جغرافية الأماكن والظواهر والأشياء .. وإيغال في النبض الذي كاد يغيب عن العيان ، ولكنه ما يلبث ان يمنح سخاءه لأولئك الذين ينصتون جيدا للأصوات البعيدة وهي تتشكل تحت جلد الظواهر والخبرات ...

وأدب الرحلة .. في بدء الامر ومنتهاه .. هو محاولة لاكتشاف سر الأشياء .. والتعرف على تكوينها الذي يبدو احيانا ككتل الجليد العائمة في المحيطات والبحار ، لا يظهر منها سوى العشر ، وتبقى الأعشار الأخرى مغيبة تحت الماء ..

لقد اتيح لي بفضل من الله ونعمة ان ارحل إلى بلدان عديدة وديار شتى ، وان أدون مشاهداتي وارسم انطباعات الاشياء على صفحات العقل والحس والوجدان.

ولان اسطنبول والخرطوم بالذات من بين العديد من البلدان الاخرى تقدمان (الوعد) في زمننا الراهن هذا .. وتمنحان الوانا من زاد الفكر والروح ... كانت هذه الوقفة السريعة تحت ظلالهما السخية.

ولان مكة .. والمدينة .. تقدمان وعدا باتجاه اخر ينوء القلم بحمله ... كانت محاولة الحديث عن فضائهما اللامتناهي ...

رحلة إلى اسطنبول في خريف عام ١٩٩٢م للمشاركة في المؤتمر العالمي الثاني حول فكر بديع الزمان النورسي ... واخرى إلى الخرطوم في شتاء عام ١٩٩٣م بدعوة من جامعة القران الكريم والعلوم الاسلامية ... وثالثة إلى اسطنبول في خريف عام ١٩٩٥م لحضور المؤتمر العالمي الثالث حول النورسي ... ورابعة لأداء فريضة الحج في ربيع عام ١٩٩٨م.

وما هي الا محاولة متواضعة للمساهمة في هذا اللون من الادب الذي ينتظر المزيد في زمن تشهد فيه حركة الادب الاسلامي المعاصر تدفقا في تياراتها الخصبة يقول للإنسان الضائع: ها هو ذا صوت الايمان العف ، والكلمة المتوضئة بالطهر والنور .. يجيئان في موعدهما تماما لكي يلاحقا ادب الكفر والضلال والدجنة والفجور الذي ظهر فساده في البر والبحر بما كسبت أيدي الأدباء الذين مرقوا عن مطالب الفطرة والدين فضلوا وأضلوا ... وآن الأوان لكي تثوب (الكلمة) إلى الحق ، وتقود التائهين والحيارى مرة اخرى إلى الصراط ..

الموصل في ١٩٩٩/٥/٩م

الرحيل الى استنبول

(١)

الطائرة تتباطأ قليلا وأخي (أديب) يشير إلى النافذة : أنظر ، إنها اسطنبول ... القي نظرة سريعة ... الأضواء تنبض في كل مكان .. تنتشر على مساحات واسعة .. تعلو وتهبط كما تريد لها طبوغرافيا الارض ان تكون .. البسفور يكاد يرى في الليل .. وعلى بعد خطوات يمتد مرمرة ، ويمضي مغربا صوب تخوم الدردنيل البعيدة .. أتذكر ما قاله أستاذ جامعي رحال : لقد جبت العالم كله .. من أقصاه حتى أقصاه ... فلم أجد اروع من اسطنبول .. وأقول في نفسي والذكريات تتناوشني كما لو كنت في حلم : بوابة العالم .. الدرب الذي اجتازه العثمانيون يوما في طريقهم إلى أوروبا .. ها هي ذي اسطنبول أخيرا.

لأول مرة أجيء اليها .. ما كنت قد رأيتها من قبل .. مدن كثيرة حططت فيها الرحال ليلا .. لكن هذه .. يبدو انها تريد ان تقول شيئا ما قالته المدن الأخرى .. احس كما لو انها تقدم وعدا من نوع ما .. لكن الليل يصدها عن ان تقول كل شيء !

في المطار يستقبلنا الأحبة ... لهفتهم للقاء لا تقل عن لهفتنا .. عبر الحواجز الموقوتة تبادلنا المحبة .. بعدها بلحظات كانت الأحضان والتربيت الودود الذي تعلمناه منهم تقول شيئا "كثيرا" .. تجتاز حواجز اللغة ، وتحكي عما يختلج في الأعماق .. بعد عشرة ايام .. عندما سنغادر اسطنبول سيكون التقليد نفسه كلمة الوداع وسنرجع إلى ديارنا ونحن نفيض حبا !

في سيارات ثلاث او اربع نجتاز شوارع اسطنبول واحياءها .. احاول بصعوبة ان التقط المفتاح وان ادخل .. فان الشوق يا مدينة الفاتح يعذبني منذ زمن بعيد .. يعرش في روحي .. كأن عمره الف سنة .. والوجد يفيض بي يا اسطنبول .. ولكنه الليل !

حططنا الرحال في فندق (ميم) .. بعد يومين سيبدأ المؤتمر الموعود .. وسيكون اللقاء مع فكر النورسي الذي ما كنا نعرف من قبل كم انه يوغل في شرايين اسطنبول ، فيعمر العقول والقلوب .. عشاق من شتى المستويات الثقافية والأعمار ... يرحلون معه كل يوم وهو يطرف بهم في الملكوت ، فيعلمهم كيف يصير العلم طريقاً إلى الله وكيف يصير الإيمان علما .. يعلمهم أيضا كيف تتوحد الأشياء ، والكتل ، والحياة ، والسماوات ، والسنن ، والنواميس ، والجبال ، والينابيع ، والشلالات والأنهار .. لكي تقول شيئا واحدا.

ما كنا نعرف ايضا .. ان طلابه يتعاملون بمفردات لغة قل نظيرها بين اللغات في عصر التكاثر والتخمة الشيئية والاكتظاظ .. لغة يتشكل قاموسها من البذل والعطاء والتضحية والمحبة ... وليس ثمة (أنا) على الإطلاق .. انه (الآخر) الذي يومئ فيهرع اليه العاشقون لكي يمنحوه كل شيء.

ولسوف نعرف يا اسطنبول ، قبل هذا وذاك ، ان هذا الدين يعود كرة اخرى لكي يعرش كالورد والفل والريحان في أحيائك وأزقتك وجوامعك وشوارعك وساحاتك .. يخضر عوده ، يستوي على سوقه ، وينث العطر على الغادين والرائحين ، مذكرا "اياهم" ، صباح مساء ، ان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) هكذا أرادها ان تكون .. حياة مفعمة بالعطر والريحان ، مغسولة بالنسمة البليلة المتدفقة من مكان ما في السماوات .. تمسح وهي تمر ، كل الآلام والعذابات التي يئن منها الانسان في القرن العشرين .. تداوي الجراح التي أثخنته بها حضارته الكئيبة الجانحة ... وتعطيه الامن والتوحّد والتوازن والفرح ... وها هو ذا النورسي في (كلماته) يجيء في الوقت المناسب تماما لكي يذكر بهذا فيضع البذار وينتظر الوعد !!

(٢)

واجدني في اليوم التالي قبالة السلطان احمد .. وأيا صوفيا .. ومخزن المياه الروماني العتيق .. والجامع الكبير وهو يتمحض لله .. وجاره المحمل بتراث القرون يئن من تداخل الأصوات .. التوحيد النقي كالبلور وهو يدافع غبار الشرك والوثنية .. والسرداب العتيق ذو الممرات الضيقة والأضواء الخافتة ، وهدير المياه المتدفقة من السقوف كالشلال يتوافق مع الأصوات الاوبرالية فينقلك إلى التاريخ.

ها هنا كل شيء ينقلك إلى التاريخ .. ولكن الجامع لا يقف عند هذا .. انه يمضي بك بعيدا باتجاه كل شيء إسلامي في هذا العالم .. يذكرك ويدعوك .. يناديك .. وسواء عليك أسمعت النداء ام لم تسمعه فانه يمضي بلغته الخاصة التي نعرفها جميعا لكي يصعد بالعاشقين إلى السماوات العليا.

القبّة الوسطية الفارهة ذات الزخارف والنقوش والخطوط التي تكاد تسبح بحمد الله وهي تتثنّى وتتعاشق وتلتقي وتفترق .. هنا وهناك .. النوافذ العليا ببلورها الملون الذي يتحدث إليك هو الآخر بلغة الموشور عندما يتكسر ضوؤه فيمنحك الأحمر والأزرق والأصفر والبرتقالي .. القباب الصغرى وهي تطوف بالقبة الام وتعينها على ثقلها فتمضي به قليلا قليلا "صوب الاسفل" وهي مع وظيفتها المعمارية هذه تمنح حالة جمالية ما عرفتها جوامع العالم كله .. ما عرفتها سوى اسطنبول .. انها في كل مكان هناك تطل عليك بهذا التركيب المدهش من القباب الصغرى التي تتحلق حول الام ... تتدرج وتتلامع ، ويتكور بعضها إلى جوار بعض .. لكأنها الاكف التي تنحني منطوية على الخشوع والتسليم ، ومن بين منحنياتها ذات الجلال تبرز بين لحظة واخرى ، منارة ، تخترق الفضاء كالسهم ميممة وجهها صوب السماء ... منائر عديدة تنبثق هنا وهناك .. رفيعة .. أنيقة .. مصعدة إلى فوق .. الإصبع المتفرد الذي يشير دائما إلى الله الواحد ، حيث

بعد التحرر من شد الأرض ، لاشيء سوى الإحساس الممتلئ الذي يكاد يلمس ويرى بأنه ليس ثمة الا الله وان لا اله إلا هو !

اللحظة تأخذ دهشتي بالتلاشي ، وأدرك تماما لماذا ظل أبناء اسطنبول ، وهي تقف بمواجهة أوربا تماما .. إزاء حضارتها التي لا تعرف الله .. لماذا ظلوا يحتفظون بأيمانهم بعمق وعذوبة معا .. ان المفتاح وكلمة السر تبدأ هاهنا .. في الجامع .. وأتذكر عبارة كارودي "كل شيء يبدأ في الجامع ويؤول إليه" ... كلماته المؤثرة وهو يتحدث عن حجارته التي تكاد تصلي وعن النور الذي ينقلك إلى عالم آخر ، فيما وراء هذا العالم ، مشع في هذا العالم .. اتذكر ايضا عبارة جاك ريسلر : "في المسجد ينبض قلب الإسلام ، وفي أرجائه يحس المرء احساسا حيا انه بحضرة الله .. الحق انه لا شيء في المسجد الا البساطة والتجانس والجمال".

والمسلم كما يحكي فليب حتى ما يكاد يدخل الصحن الذي ينكشف للسماء والذي تحيط به الأروقة حتى يجد في نفسه ميلا "شديدا" إلى الانعتاق من البيئة المادية التي حوله ثم نزوعا في الوقت نفسه إلى السمو نحو الملا الأعلى ، وهذه المئذنة الطويلة الرشيقة أشبه بالإصبع تنتصب مشيرة إلى السماء ، وما في جوف المسجد ، فان القبة المتلألئة بالمصابيح تبدو وكأنها صورة منقولة عن قبة السماء .. وهؤلاء المصلون حولك معا أو فرادى ، في كل مكان من المسجد يولدون في النفس شعورا بمشاركة تسع العالم كله.

حقا ان هندسة معمارية كهذه هي كما قال اوليغ غرابار يوما : نقل بصري لرؤية العقيدة الإسلامية الكونية !!

أعرف ايضا لماذا ظل الصوت التركي غنيا "إلى هذا الحد عذبا ، "مؤثرا" ينطوي في اللحظة الواحدة على عشرين طبقة او تزيد .. بعد أيام سيقدر لي ان اسمع توشيحا .. ان اذوب وجدا "وحزنا" في صوت تركي ينشد (شفاعة يا رسول الله) .. صوت آخر يخاطب بنبرة عتاب متشكية ، كل الذين لا يقدرون على تحمل مشاعر الصعود إلى فوق : "الم اقل لك؟" بعد ايام سأكافح وأنا اجلس إلى جوار أخ نورسي يقود سيارته في جبال بورصة لكي امنع دمعة تريد ان تفارق مكانها.

هنا .. قبالة السلطان احمد ، قبالة إبداعية المعمار المدهش (سنان) تحت القبة الكبرى تماما .. ازاء الخطوط والنقوش والزخارف .. في مواجهة البلور ذي الألوان .. في غمرة الفرح الروحي الممتزج حتى آخر جذر فيه بالبهجة الحسية ، يريد الانسان ان يصرخ .. ان ينشد ويغني .. ان يرفع صوتا .. لكي يتخفف بعض الشيء من معاناته .. ان يصب قليلا من الماء على الجمر الذي يتسعر في أعماقه.

وأنت تتذكر محمداً (عليه الصلاة والسلام) تجده حاضرا ، قبالتك ، وتتذكر معه يوم الهول ولا تملك الا ان تتوسل إليه ، وان ترفع إزاءه أعذب واعمق وارق صوت في هذا العالم متشبثا بأذياله : شفاعة يا رسول الله.

وأنا أنزف دمعي بصمت في محاولة للتشبث بأذيال رسول الله ، كنت ادير بصري في أرجاء الجامع الكبير ... هنا يا اسطنبول كان البدء .. وهنا سيبدأ الرحيل الثاني إلى الله .. والعالم .. وكل الأشياء الجميلة التي حدثنا عنها النورسي في كلماته ..

والتجول في أيا صوفيا يورث حزنا .. محاولة يائسة تكافح من اجل ان ينطفئ التوحيد الذي هو اغلى واعمق وأثمن ما يملكه المسلم في هذا العالم .. واجتياز حذر بين الممرات الضيقة للحمام الروماني العتيق ، يضع الانسان في دائرة الضيق والاكتئاب .. وأريد أن أعود إلى السلطان احمد ... أتمنى أن أبقى الساعات الطوال في مسجده الكبير .. هاهنا يستعيد الانسان البهجة والفرح .. يتجاوز كل انماط الكآبة والحزن التي تفرض حصارها القاسي في زحمة القرن العشرين.

ان السلطان احمد .. فيما بعد : محمد الفاتح ، والسليمانية ، وبايزيد وغيرها عشرات الجوامع الكبرى ، توقفك قبالة التاريخ ولكنها لا تأسرك فيه .. انها بقوة العقيدة .. التي أنشأتها وزينتها ، تمضي بك خارج الحيز المحدود ، فتحررك من اسر الزمن والمكان ... خارج دائرة التاريخ تماما ..

في جوامع اسطنبول عرفت تماما كيف يكون الإنسان في اللحظة الواحدة ، في التاريخ وبعيدا عنه ، وكيف كان النورسي وهو يتحدث عن الذرات والأشياء ، يتحرر من شدّها وأسرها وينطلق خفيفا رشيقا إلى الفضاء اللانهائي وهو يتأبى على مقولات الجغرافيا ونسبيات التاريخ.

(٣)

وها هو ذا البسفور يحتضن مرقد أبي أيوب بحنان .. ثمة لغة يصعب الإمساك بحروفها تتشكل بصمت بين المضيق الهادئ العميق والشهيد القادم من اعماق الصحراء ، صارخا عند بوابات القسطنطينية الغارقة في الشرك ... الضائعة ... التي فقدت هويتها منذ زمن بعيد :

افتحي !

وهو يدلف إلى الشيخوخة ، يتسلق الاسوار بخفة مقاتل في العشرين فيلتقي الله هناك ! في تاريخ جد مبكر اراد ابو ايوب الأنصاري ، وكل المجاهدين الاوائل ان يفتحوا الأبواب ، وان يمنحوا القسطنطينية ، وأوروبا من ورائها ، كلمة التوحيد.

في علم الله وقدره الذي ينسرب في المجاهيل ما كان مكتوب لهم هذا ... في عصر سليمان بن عبد الملك ، دقت ابواب القسطنطينية مرة أخرى ، فلم تفتح ... بعدها بعشرات السنين أوغل الرشيد في الأناضول ميمما وجهه صوب البوابة الشرقية نفسها ... فلم يكتب له الفوز .. يكفي المسلمين شرفا انهم حاولوا .. انهم استكملوا الاسباب .. وتركوا الباقي على الله ..

ليس أبو أيوب وحده ... عشرات الآلاف من اخوانه وأحفاده ، تساقطوا عند الاسوار ودفنوا هناك. واليوم ، قبالة مرقده المتواضع في حضن البسفور .. يتوحدون جميعا .. والانصاري ليس وحده .. والذين استشهدوا معه بعيدا بعيدا جدا عن اهليهم وديارهم ليسوا وحدهم .. سيجيء محمد الفاتح .. ومعه عشرات الالوف من المجاهدين الاتراك لكي ينضموا إليهم .. يطلبون الشهادة هم الاخرون عند اسوار القسطنطينية .. يدقون ابوابها صارخين كرة اخرى : افتحي .. وسيصير محمد الفاتح ستارا لقدر الله ..

خذها يا محمد .... فلقد ان الأوان

يدخل الفاتح .... وما ان تطأ قدماه الارض مترجلا عن فرسه حتى يخرّ ساجدا لله ... ومن ورائه مئات الآلاف من المجاهدين .. بعضهم كان قد استشهد منذ ثمانية قرون .. بعضهم يستشهد اللحظة .. آخرون اقتحموا معه الأسوار !

الان ... الكل ينهض .. وابو ايوب يربّت على كتف الفاتح : بارك الله فيك .. ها أنت ذا تمنحني الماء بعد عطش تسعمائة عام او تزيد .. ها أنت ذا تبل ريقي .. فبارك الله فيك ...

أقف قبالة مرقدك يا أبا أيوب لا ادري ما أقول .. أقرأ الفاتحة .. اتلفت بحثا عن المزيد .. ذكريات مترعة بالحزن الكبير تتقاذفني .. اجدني كرة اخرى قبالة التاريخ وهو يتشكل من جديد .. والسؤال المعذب نفسه يهدر في كياني الذي يتداعى إلى حد الاعياء .. ينذر بالسؤال نفسه : لماذا ؟ لماذا وقد فتح العالم على ايديكم ، يتراجع الاحفاد فيدخل عليهم الغرباء الأبواب ويقضم الجراد الأصفر ما زرعوه فما يلبث ان يصير حطاما ... لماذا يا أبا أيوب ؟ ! لماذا يا محمد الفاتح!؟

صعب ان تعيش التاريخ وهو يتنامى قبالتك .. في دمك وأعصابك وذكرياتك .. واصعب منه أن تجد نفسك وأهليك وديارك .. ازاء كل انتصاراته الكبرى تنزف حزنا .. وألما وضياعا.

نصلي في المسجد ثم ما نلبث ان نغادره عائدين ... عن شمالنا كانت تطل بين الحين والحين الاسوار العتيقة ، مخترقة شوارع اسطنبول وساحاتها .. نجتاز ثلمة واسعة في السور وندلف إلى هناك ..

من يجيء إلى اسطنبول ، حتم عليه ان يزور مرقد أبي أيوب ، وان يسلم عليه ، والا فإنه لن يجد اسطنبول .. انه بداية الطريق الطويل إلى الفاتح ..

وبين الرجلين ... الشهيد المتغرب الاتي من ضمير الصحراء .. والشاب الفاتح القادم من أعماق الأناضول ، نهضت اسطنبول ، شاهدة على انه ما من قوة في الارض يمكن ان تقف في وجه امة عرفت كيف تصير شهادة التوحيد هويتها المتفردة بين الامم والجماعات والشعوب .

(٤)

في المساء دعينا لحضور واحدة من حلقات النور المنبثة في شرايين اسطنبول .. الصالة العليا تزدحم بالمستمعين .. يتحلقون بشغف حول استاذ يقرأ مقاطع من رسائل النورسي التي لا تكف عن العطاء .. من اعمار شتى جاءوا .. تبدأ بالصبا وتنتهي عند حافات الشيخوخة .. رأيناهم هناك شبابا وكهولا .. وشيبا .. تتجه ابصارهم صوب البؤرة نفسها .. يتوحدون قبالة النورسي كما لو كان حاضرا إزاءهم .. والكلمات تمطر عليهم أمنا ومحبة ويقينا وسلاما .. تمنحهم التين والزيتون والكمثرى .. تضعهم في قلب العالم ... وتنطلق بهم من هناك صوب الملكوت .... ان قراءة واحدة في احدى رسائل النور تكفي لان تلبي اشواق الانسان ... لا يريدك ان تنفصل عن العالم .. سعيد الجديد هذا .. ولكنه يعطيك في الوقت نفسه الفرصة لان تطير في الفضاء الكوني بألف جناح ... لا يدفعك إلى الفرار من التحديات إنما يضعك قبالتها تماما .. ويعطيك .. "الكلمة" التي بها تستجيب فتجتاز المجاهيل ..

لم نكن نعرف التركية لكننا كنا نقرأ في نظراتهم وهي تلتهم "الكلمات" .. في شوقهم المتدفق للحاق بالأستاذ ... في صمتهم الذي يكاد يحكي ويقول ... ما الذي كان يقرأه الأستاذ .. ويكفي ان يكون الاخ (احسان) إلى جوارك لكي تكسر حواجز اللغة ، فيصل اليك ، بقدرته المتمرسة على الترجمة ، ما يريد الاخرون ان يقولوه ... للحظات كنت احس بأني أكاد اطير معهم إلى هناك عابراً بحار الدنيا وجبالها ومتاريسها مصعدا إلى الفضاء الذي تشف فيه الروح وينقدح زناد العقل ، ويصير الانسان هكذا قبالة الكون ، مشاركا في المصير.

تخترق ذاكرتي ثلة من الذين عاشوا معه ولا يزال بعضهم على قيد الحياة .. احدهم يجلس قريبا مني .. انه الاخ الكبير (م) اتيح له ان يرافق الشيخ في سنيه الاخيرة ... وبعد ثلاثين سنة من رحيله ، يظل (م) يتذكر اللحظات التي عاشها مع أستاذه .. الزمن الواعد بالعطاء .. ما من فرصة تتاح له حتى يتدفق كلامه عذبا "سائغا" كالعسل المصفى وهو يحكي عن (سعيد) .. حديثه عنه لا يمل رغم حاجز اللغة .. لم يكن لسانه الذي يتحدث .. كان يفتح قلبه على مصراعيه ويأمره ان يقول .. كنا نلمس هذا في كلماته .. في نظراته المترعة بالشوق لأستاذه الراحل .. بالمحبة والاكبار .. بالعشق الفريد الذي يصعب وصفه .. نظراته التي يلتقي

فيها التواضع والكبرياء .. والحزن .. والفرح .. والبراءة والهم الكبير .. والطفولة والشيخوخة .. والعفوية والتوتر .. نظراته التي أسرتنا جميعا والتي أحببناه من اجلها.

أي تعلق هذا بالأستاذ ؟

لا أدري لماذا كنت اشعر بالحزن وأنا انظر اليه ... وهو يدير عينيه بحذر هنا وهناك .. كأنه طائر متفرد أرغم على مغادرة عشه والقي به في المجهول .. لكنه بين لحظة واخرى ما يلبث ان يحس بالأمان ... وكان يهمني ان اتابع هذا الاحساس ، فحيثما جاء اسم النورسي على لسان احد المتحدثين ، حيثما دار الحوار حول هذا الجانب او ذاك من فكرة ... كنت اجده يبتسم بهدوء ويخفض رأسه ، كما لو انه وجد عشه الضائع ، وهو إذ يحس بالأمان يتدفق كرة أخرى بذكرياته العذبة عن الشيخ ... لا يرى بأسا .. ان يجلس عند اقدام المتحدثين ما دام يعرف سلفا انهم سيفتحون الأبواب لكي يدخل بهم إلى عالم النورسي السعيد ... فيرتاح ..

أحببناه كما لم نحب احدا من تلامذة الشيوخ الكبار ومريديهم ... إنه مريد من نوع فريد .. زماننا الممحل هذا بأمس الحاجة إلى عشرات من مثله ... إلى العشق الكبير الذي يتدفق من قلبه تجاه (الأستاذ) فينير الطريق امام السالكين ويمنحهم التعاليم.

قرأت عشرات الكتب ومئاتها ولكني ما تعلمت منها قدر ما تعلمته من الاخ الكبير (م) .. أسأله ونحن في طريقنا إلى قرية (كوزلجة) المطلة على (مرمرة) عند حافات اسطنبول الغربية ... هل كان سعيد يمزح ؟ وما هو طعامه المفضل ؟ وكيف كان يقضي أوقاته خارج دائرة القراءة والكتابة ؟

يتحفز قبل إكمال السؤال .. محبته للأستاذ حفرت في ذاكرته كل صغيرة وكبيرة فما من قوة في الارض بقادرة على ان تدفعها إلى دائرة النسيان ... حاضر هو مع استاذه في تفاصيل حياته اليومية ومنحنياتها .. ولك ان تعرف مسبقا .. أنك ستتلقى الجواب الذي تطمح إليه ، بكل دقائقه وخطوطه ومفرداته ..

كان سعيد يحب المصارعة .. رياضته المفضلة كانت قبل ان تفترس الهموم صحته وعافيته .. الكل تمكن من الفوز عليهم .. مرة واحدة فقط كاد خصمه أن يتفوق عليه .. فما كان من سعيد إلا ان تحسس قبضة خنجره .. استله من مكمنه ووخز به الخصم .. فآثر الانسحاب .. لم يعتد سعيد ان يهزم في حياته .. ان ينكسر لاحد ..هكذا قال الاخ (م) باعتزاز .. العسل المصفى كان طعامه اليومي .. وجبته المفضلة .. يكفي أنها تذكره بكتاب الله .. بآياته البينات التي تحدثت عن النحل وعن عسله الذي يشفي الناس .. يكفي هذا لكي يقيم الشيخ معه علاقة مودة لم تفارقه حتى اللحظات الأخيرة.

سألت كثيرا وتلقيت كثيرا .. والاخ (إحسان) يمارس مهمته الصعبة سفيرا بين العربية والتركية ومن وراء كل سؤال وكل جواب كان الاخ (م) يفرض على الذين التقوه ، ربما لأول مرة، حضورا من نوع غريب يجعله يدخل قلوبهم من غير استئذان ، ويعرش هناك ..

وماذا يقول المرء عن الآخرين (الأخ ف والأخ أ والأخ ب .. و .. و) ممن وضعوا حياتهم كلها في خدمة الأستاذ والتمكين لفكره في الأرض ؟ إن تفوقهم المدهش يبدو ها هنا : القدرة على التجرد وإفناء الذات من اجل مسألة هي أكبر بكثير .. وأعمق بكثير من كل اغراءات (الانا) ونداءاتها .. انهم يذوبون تماما ، في بؤرة النور ... وهم يعرفون أنهم لن يضيعوا ، لانهم بهذا سيجدون ذاتهم كرة اخرى .. وسيتوحدون قبالة كل المصاعب والتحديات .. فهل ثمة مغنم روحي في حياة الإنسان أكبر من هذا ؟

(٥)

ويوما أقلتنا السيارات إلى مدرستين لأبناء النور .. من اجل ان نرى ما الذي يجري هناك .. والذي رأيناه يمنح الفرح ويثير الإعجاب.

إحداهما مدرسة (رسمية) تعطي المفردات المنهجية نفسها التي تعطيها المدارس الأخرى: العلوم والإنسانيات .. ولكنها تضيف إليها لمسات إيمانية فتعرف كيف تخرج بها عن دائرة الكفر والمروق إلى ساحة اليقين العميق.

جميل ان يتلقى الإنسان الكيمياء والفيزياء والأحياء ... والرياضيات وكأنها سيمفونية تسبيح لخالق الملكوت .. رائع ان يصير تدريس العلوم الصرفة تعبيرا عن إبداعية الله في الكون والعالم والوجود .. والجغرافية .. عندما يتم التعامل معها من منظور إيماني تصير بانوراما تفتح شاشتها اللامتناهية على المدى ، وتمنح الطلاب الكثير... الكثير جدا .. مما لا تستطيع ان تعطيه جغرافيا الكتل المادية ، والمساحات الضيقة ، والتعرية والتآكل والنحات .. والظواهر المنبتة عن أسباب السماء.

تناولنا غداءنا في السرداب الأرضي الأنيق ... اعتذر الدكتور سعاد عن تواضع الطعام ... ليس متواضعا .. قلنا له ، يكفي انه معجون بالمحبة لكي يصير طعمه شهيا ، صعدنا إلى دور اخر : توظيف جيد لتكنولوجيا الإيضاح ... مما يسمى بوسائل الإيضاح في احدث معطياتها ... ودخلنا احدى قاعات المحاضرات لكي نعاين الطلبة وهم يتلقون درسا ، في عز الصبا والشباب هؤلاء الطلاب .. عندما تحين مواعيد الصلاة ما كان احدهم يتخلف عن حضورها ... بهندامهم الأنيق .. بتعشقهم للعام .. بالتزامهم بمطالب الايمان .. يصيرون شيئا

اخر يختلف عن ملايين الطلبة الضائعين في أروقة المدارس لا يعرفون مواقعهم من خرائط العالم والوجود .. ولا يملكون أيما رؤية مقنعة للمصير ..

ها هنا يعطون الجواب .. تصير الكيمياء والفيزياء والجغرافيا والنبات والحيوان فرصة جيدة لفك اللغز الذي ضيعتهم فيه حضارة المادية والتكاثر ، ويتفتح إزاء وعيهم تماما سر العالم كما لو انه يتشكل اللحظة بإرادة الله !

أية متعة هذه وأي توحد عميق ؟ .. عندما يمسك التلميذ بأعنة حياته جميعا .. ويسوقها إلى الهدف الواحد بعيدا عن التشتت والتبعثر والازدواج ..

قائد اوركسترا يغدو الإنسان وهو يجد العلم الذي يصلي لله والصلاة التي تعلم الكيمياء والفيزياء والجغرافيا والنبات والحيوان .. هاهنا ليس ثمة أصوات متنافرة ، كما في الغرب الممزق .. ليس ثمة حتى أصوات شتى .. إنما هو التوافق الهارموني الذي يضع الانسان قبالة اللحن الكوني العذب .. قبالة الوفاق الجميل السعيد بين الانسان .. والله ... والكائنات .. هذا الذي تحدث عنه النورسي فأطال الحديث .

ما يلبث المصعد ان يحملنا إلى الدور الاخير لأداء الصلاة وشرب الشاي .. صالة فارهة تطل على مساحات واسعة من اسطنبول .. شمس الخريف تخترق زجاجها الواسع بهدوء .. والخرائط الكبيرة المعلقة على الجدران تضع العالم بين يديك ..

هنا نحن قبالة اسطنبول .. والشمس .. والعالم .. أية صلاة هذه التي تؤدى هنا ؟ أي توافق بين الظواهر والأشياء ؟؟ كانت المحبة تعمر قلوبنا .. من العراق جئنا .. ومن مصر .. وتركيا .. وأوربا .. نتحدث بألفة كما لو كان احدنا يعرف الآخرين منذ مئات السنين .. نصلي سوية فنزداد توحدا .. وانسجاما .. الحياة الإسلامية – أخاطب نفسي – تتفوق على حياة الآخرين .. كأننا في مضمار العاب الساحة والميدان .. والمسلمون يهرعون إلى خط النهاية ، وقد خلفوا وراءهم .. بمسافات متطاولة كل العدائين.

أقول لأخي (عاشور) الذي يدخل قلوب الذين يعرفونه جيدا بغير استئذان : أنظر .. انه مكان مناسب تماما لأداء الصلاة .. ان الاخوة الأتراك يعرفون تماما بتمرسهم على التعامل الجمالي مع الظواهر والأشياء ، كيف يختارون الموقع المناسب تماما ...

الأخ (بهجت) كان يحكي عن كتابه الذي لقي رواجا كبيرا : (قصص الحيوان في القران الكريم) .. وأسأله عن مؤلفاته الاخرى فيقول إنها ليست كهذا الكتاب الذي جاوزت طبعاته العشرين .. إنه يغريني بتجاوز حاجز الأدب واستجداء نسخة منه يرسلها على عنواني بالبريد .. فيستجيب الرجل مسرورا ..

ترى هل سيصلني الكتاب ؟

ويدور الشاي ومع الشاي حديث عن الصوت التركي العذب ذي الطبقات الغنية والقدرة العجيبة على التعبير المؤثر العميق .. وثمة أخوان نورسيان كانا يجلسان قبالتنا .. أخذا يدندنان بموشح عذب ... للحظات أحسست أنني أكاد أذوب وجدا .. كما في كل مرة سمعت فيها صوتا تركيا .. وتمنيت لو أنهما يستمران ولو أن عقارب الساعة تتكسر ، كما يقول الادباء الطليعيون. ولا يتبقى ثمة خارج نطاق الزمن والمكان ، سوى الصوت العذب الذي ينقل بنبراته المتموجة الشاكية عشق الله .. والرسول .. وكل القيم والموجودات والاشياء الجميلة في هذا العالم ..

الوجع الكبير ها هنا .. في الصوت .. وهو قدير على ان ينقلك إلى اللامتناهي .. يحررك من أسر المحدود .. ومن كل ما يعذبك في هذه الدنيا .. يشفك وجدا .. وحزنا .. يصعب وصفهما .. ويجعلك تطير إلى السماوات بأجنحة لا تدري من أين ؟

الوجع الكبير هو هذا ... ولسوف أظل اذكر الموشح التركي كأعذب الأصوات التي سمعتها في حياتي وأكثرها تشكيا ووجدا ...

(٦)

نغادر المدرسة في طريقنا إلى الجانب الآخر من اسطنبول .. نجتاز جسر البسفور الطويل .. ونصعد في المرتفعات .. المدرسة الاخرى التي نيمم وجوهنا إليها هي في أعلى نقطة هناك .. موقع يطل على اسطنبول كلها ويضعها والبحار التي تتخاصر معها بين يديك .. السيارات نفسها أخذت تئن من عنف الصعود .. والاخ الدكتور (شلبي) يفضل النزول والتوجه إلى المدرسة مشياً على الأقدام ، على أن يقع المحذور فلا يتاح لزوجته ان تراه مرة أخرى.

رائع هذا الرجل ... إنه في لحظات الجد يستطيع ان يبكيك .. ثم ما يلبث ان يخترق جدار الحزن ، على حين غفلة ، لكي يطرح تعليقا ، أو يحكي نادرة مما سمعه او وقع له ، فيرغمك على ان تضحك .. اليس هو الذي فك لغز الأخوين بهجت وعاشور ، اذ رآهما يتهالكان على شراء هدايا لزوجتيهما من الملابس الجلدية ، بالشعار الذي أزال كل غموض .. (الجلد أو الجلد) بينما إزاء إلحاح أشد عنفا من زوجته يختار شعارا اخر على النقيض تماما .. (النصر أو القبر).

ندلف إلى المدرسة .. يتلقانا مديرها الشاب الذي يتقد حيوية ونشاطا ... يقودنا إلى غرفة الإدارة المطلة على الوادي .. إنها مدرسة العلوم الشرعية – يقول – نتلقى الطلبة من مختلف البقاع والاعمار فنعلمهم القران والعربية وعلوما إسلامية اخرى لكي ما يلبثوا ان يعودوا إلى ديارهم وقد زودوا بما يمكنهم من أداء مهماتهم هناك .. بعضهم من تركيا نفسها وبعضهم الآخر من بلدان آسيا المتناثرة في فجاج الأرض .. التقينا المنغولي والتركستاني والأذربيجاني والداغستاني

والتركي .. وكان بيننا العراقي والمصري والإنجليزي والألماني. ها هي ذي الأممية الاسلامية التي تجمع احفاد هؤلاء إلى احفاد الفاتح وأبي أيوب في وحدة تنصهر فيها كل حواجز الجغرافيا والتاريخ ولا يتبقى ثمة سوى العقيدة التي نسجت المظلة الكبرى في هذا العالم .. مظلة **(لا إله إلا الله)** .. المظلة الوحيدة الباقية المنفسحة .. القديرة على مجابهة الاعاصير .. حيث تمزقت وتتمزق قبالة أعيننا في كل يوم خيام ومظلات صنعها وأقامها أناس ما كان بمقدورهم مطاولة تحديات التفكك والتلاشي والفناء ... لأنهم ما عرفوا الله.

ثمة شاب جركسي يرتل آيات من القران بصوت عذب قدير على التعبير ... لكأنه يعرف العربية منذ يوم ميلاده .. أي سر هذا في الذين يتعاملون مع كتاب الله ؟

ويطلب الدكتور (شلبي) من شاب منغولي ان يرتل قليلا .. يرغمك هذا على ان تتذكر هولاكو ، وسقوط الخلافة العباسية ، وضياع بغداد .. وأن تقارن بين ما فعله الاجداد وما يتوق إليه الأحفاد المتحدرون من الصلب نفسه ، بقوة هذا الدين وسره المعجز ...

يرتل المنغولي بعربية فصيحة ونحن نهمهم : سبحان الله ، ونمعن النظر فيه بإعجاب .. ويقول المدير الشاب : يعود هؤلاء إلى ديارهم لكي يقوموا بأنفسهم بتعليم أبناء شعبهم المتغرب ، المنفي في الابعاد .. شيئا عن كتاب الله وتعاليم رسوله عليه السلام .. بعدهم تجيء وجبه اخرى .. ويسأله شلبي : هل أنت متزوج ؟ يجيب المنغولي الذي يبدو كما لو انه لم يتجاوز العشرين من عمره : نعم.

- وهل لديك أطفال ؟
- اثنا عشر
- (يا ابن الجنية)

لم يدرك المنغولي نكتة شلبي .. لم يدرك أيضا سبب ضحكنا العميق ..

بعد لحظات ، جاء ثلاثة أطفال في عمر الزهور .. من أصقاع شتى .. وراحوا ينشدون (طلع البدر علينا) لست ادري وأنا أنصت إليهم لماذا تذكرت ، فجأة ، النصل الحاد الذي يخترق جسدنا في البوسنة والهرسك هذه اللحظة .. لست ادري لماذا تذكرت كل أحزان المسلمين في العالم .. القتل .. والذبح .. والجوع .. والتغرب .. والحصار .. والعطش ؟ ألان أحد الأطفال ربما كان بوسنيا جيء به من هناك بعد ان ذبح ابوه وأمه وأخوته لكي يحتضنه الملجأ ؟ أم لاننا جميعا .. مسلمي القرن العشرين .. نعاني من القتل والحصار ، والجوع ، والعطش .. من التغرب الذي حدثنا عنه معلمنا العظيم عليه أفضل الصلاة والسلام ؟

كافحت من اجل الإبقاء على دمعتين أطلتا من عيني ، في مكمنهما .. لم استطع في نهاية الأمر ، وأنا أنصت للطفل البوسني الذي قطع من شجرته المتيبسة ، هناك في سراييفو ،

وجيء به وحيدا ، غريبا ، لكي ينشد في مدرسة تركية نائبة بعفوية وصدق وعذوبة : (طلع البدر علينا) أي قلب يملك ذرة إيمان ، بمقدوره ان يحبس دموعه عن الانطلاق ؟

والتفت إلى اخوة الرحلة فمن عجب ان اراهم يبكون بصمت هم الآخرون .. أتراهم كانوا يتذكرون الشيء نفسه ؟

وشلبي الذي أضحكنا قبل لحظات ، ها هو الان ينزل عن كرسيه لكي يجلس على الارض ثم يزحف قليلا صوب الطفل فيحتضنه ويقبله ... كان شلبي يبكي هو الآخر .. وتذكرت – لست ادري لماذا – كيف ان دموعنا هذه ، قد تكون – رغم عجزنا وقصورنا – جواز سفرنا إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .. ووسيلتنا في أن نقف قبالته يوم الحساب الكبير ... فنصرخ مستغيثين : (شفاعة يا رسول الله) ...

النصل الحاد .. وهو يغوص في لحمنا حتى العظيم .. ويزيدنا عذابا .. أننا نرى المذبحة قبالتنا .. قبالتنا تماما .. فلا نستطيع أن نفعل شيئا ..

في يوم ما .. موغل في التاريخ ، زرع العثمانيون الاسلام في أعماق أوروبا ، قريبا من حافاتها الغربية .. وعندما سقطت الخلافة تداعى الصليبيون الجدد لواحدة من ابشع عمليات التصفية العقيدية في التاريخ البشري .. مجزرة اخرى كتلك التي شهدتها الاندلس على يد الكنيسة والسلطة ومحاكم التحقيق.

والآن فإن البوسنة والهرسك تتعرضان للسكين نفسها ... ان الغربيين لا يريدون ان يكون في أوربا موطئ قدم لهذا الدين لأنهم يعرفونه جيدا ... عقيدة انتشارية حركية ترفض السكون .. تتأبى على الاسر في الحيز .. تتحرر من مقولات الجغرافيا والتاريخ وتنطلق لكي تعرش في الآفاق .. يدركون هذا جيدا .. لذا فإنهم قد يختلفون في كل شيء الا في هذه ... ولكن أقول في نفسي متصبرا .. ان للبيت ربا يحميه.

ولقد ظل هذا البيت على تقلبات التحديات والاحداث قائما "فعلا" بإرادة الله حيث تداعت بيوت الاخرين وصارت حطاما ..

نغادر المدرسة لكي نقف لحظات عند القمة الخضراء المطلة على اسطنبول الأوروبية .. والجسر .. والبسفور.

واحدة من أجمل بقاع الارض .. تزيدها لحظات الغروب الواني روعة وجلالا. كان قرص الشمس الذي اصبح الان برتقاليا موشحا بخطوط حمراء بلون الدم .. ينحدر بهدوء خلف البحر. خلف الهضاب الغربية .. وراء العالم .. لكي ينغرز في مكان ما عند حافات اسطنبول .. مانحاً الارض ، والبحر ، والروابي .. والاشجار ، تلويحة الوداع .. حيث تتلامع عن بعد ، كالعادة ، مئات القباب والمنائر التركية ذات التكوين المعماري المدهش .. متجذرة في الأرض ،

شاخصة إلى السماء .... شاهدة على انه ما من قوة في الارض قادرة على ان تجرد اسطنبول عن وجهها الإسلامي الأصيل.

هنا ، وفي كل مكان من العالم ، تتكور القباب وترتفع المنائر إلى فوق لكي تقول الشيء نفسه .. لكن هذه .. هذه التي ترفع الخطاب إلى أوربا النصرانية .. هذه التي تتمحض بالنداء لله الواحد قبالة الشرك والتثليث .. هذه التي تحرس وتحمي إسلامية اسطنبول من ان تصير اندلسيا ثانية .. هذه مسألة اخرى .. من ثم فإن ايقاعها المتوافق في فضاء اسطنبول الذي يستقبل الليل عند الحواشي البعيدة .. فيلتمع بالضوء .. والوعد ، يقول أشياء اخرى اكثر بكثير من كل ما تقوله المنائر المبثوثة في الأصقاع النائية من عالم الاسلام.

(٧)

كان يوم افتتاح (المؤتمر) يوما مشهودا .

ونحن ندلف إلى قاعة (مصطفى كمال) في قلب اسطنبول ، كنا نشق طريقنا بصعوبة وسط حشود كبيرة من المشاركين كانت تملا الشوارع الفرعية وتزدحم بها الصالات والممرات المفضية إلى القاعة التي نصبت فيا اجهزة التلفاز لنقل الوقائع بالصوت والصورة معا.

القاعة الكبرى نفسها ، بأدوارها كافة ، كانت قد غصت بالحضور ..

في يوم ليس ببعيد ، كان المشاركون في المناسبات الاسلامية ، والدينية ، لا يتجاوزون العشرات عددا ... وكان معظمهم يدلف إلى الستين او السبعين من العمر .. أولئك الذين ظلوا على تقلبات الزمن ، أوفياء لذكرى هذا الدين الذي جعل للامة التركية مكانا في العالمين .. بعدهم ، وعلى حين غفلة .. وكالانكسارات الحادة التي تؤول إليها فجأة حافات الجبال العليا .. يجد الانسان نفسه قبالة فراغ مخيف .. جيل الشباب يدير ظهره لما اعتبر ماضيا غير جدير بالالتفات ويميم وجهه صوب الغرب .. ما كان احد منهم ، بقوة الايحاء اليومي المكثف والمتواصل .. يقدر على ان يفصل ، او يتصور على الأقل .. أن بالإمكان فك الارتباط بين عقيدة الاسلام الحركية الحية ، برؤيتها المستقبلية ، وقدرتها على التجدد والانبثاق .. وبين التاريخ.

إذا كان سلاطين آل عثمان قد مضوا فإن الاسلام نفسه مضى معهم .... هذه الرؤية المسطحة للظاهرة الإسلامية التي أريد لها ان تمر إلى عقول الأجيال التالية وان تتموضع فيها ..

أما الآن ... فما الذي حدث ؟

قاعة (مصطفى كمال) وهي تغص بالجيل الشاب نفسه الذي يعود إلى الطريق كما يعود الابن الضال إلى أمه وأبيه .. إنهم يجدون أنفسهم في مكانهم تماما ... في الحضن الدافئ .. في الوعد المبشر بحياة سعيدة في هذه الدنيا وفي الأبدية ..

بعد رحلة تغرب معذبة دامت خمسين عاما .. هاهم الآن يرجعون .. أنظر على عجل قبل ان أجلس فتقر عيني .. واحدة من اسعد اللحظات في حياتي .. يخفق قلبي كطائر يريد أن يصفق وأن ينطلق .. ولكن إلى أين ؟

أتمتم بيني وبين نفسي .. الحمد لله .. وأقول لجاري الأخ (أديب) : أنظر إنهم لا يجدون موطئ قدم .. فيرد مشبعاً باليقين : ألم أقل لك ؟

عندما كنت في بلدي .. ولسنوات طويلة ، ربما تتجاوز الأربعين عاما ، كنت أسمع عن تيار شاب يشق طريقه في الأناضول .. ما كنت بقادر على ان أتخيل حجم التيار .. وأن أسبر غوره .. اللحظة أرى .. أسمع . أسبر .. فتقر عيني ..

وتتوالى الكلمات .. إضاءات مكثفة لجوانب من المسيرة التي قطعها الأستاذ عبر رحلته المضيئة الطويلة .. كان يطلقها من على المنصة ، بمواجهة التلامذة تماما .. قبالتهم .. متحدثون من شتى البلدان : من أمريكا من بريطانيا وألمانيا وإيطاليا .. ومصر وتركيا والعراق .. والآن يجيء دوري ..

ما الذي يستطيع المرء أن يقوله في خمس دقائق عن رجل ما استطاع ان يقول كل ما عنده عبر خمسين عاما .. ومائة وثلاثين مكتوبا ؟

وللحظات عرفت كيف يخرج الإنسان من المأزق .. ان يتعامل مع المفاتيح .. مع نقاط الارتكاز في فكر الأستاذ .. ما الذي أراد ان يقوله بصوت عال .. وكيف جابه العالم والظواهر والأشياء والتحديات ..

كنت كمن يعاني من العطش ويحظى بجرعة ماء لا تكاد تروي ظمأه وتبل ريقه .. لست في موضع المحاكمات العقلية .. قلت في نفسي ، فهذه موعدها المؤتمر نفسه ، أما الآن ، فإن اللحظة المدهشة تتطلب شيئا آخر .. "مغايرا" تماما ... أن تنتزع من قلبك الذي يخفق بالحزن والمحبة .. بالعذاب والسعادة .. بالمرارة والعذوبة .. كلمات قد تمتص شيئا من العناء ... وقد تصل بينك وبين الجمهور فتكهربه .. وبذا تفتح الطريق للتيار المحتبس فيتسرب إلى الكل الذي يصير الآن واحدا ... ولأنه كذلك فإنه قدير على تلقى السيال والامساك بالكهرباء ..

يا سعيد النورسي .... رفعت ندائي .. يا بديع الزمان ... أيها المعلم والشيخ والأستاذ ... قم .. قم لترى ما الذي صنعته يداك ... البذار الذي غرسته يشق الأرض وينهض مستويا على سوقه ، يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار .. قم لترى العالم الذي تحدثت عنه طويلا .. قلعة الإلحاد الفكري في الشرق وهي تتهاوى فتصير حطاما .. وقلعة الفساد الخلقي في الغرب يأكله

الإيدز والمورفين .. قم لترى تلامذتك يملأون السهل والجبل .. تغص بهم الطرقات والساحات .. ويملأون مقاعد الدراسة والجامعات .... يكفيك شرفا أيها الأستاذ أن تغادر الدنيا والشموع التي أوقدتها في حلكة العالم .. لا تزال تشتعل لكي تضيء الطريق للمدلجين في الظلمات ..

ونحن نغادر القاعة يتقدم إلى بعض الشباب متسائلين بعتاب : ماذا فعلت ؟ أجفل بعض الشي .. ولكن أحدهم ما يلبث أن يقول : لقد جعلتنا نبكي .. فأقول له : إنه على أية حال الثمن الذي يتحتم علينا جميعا أن ندفعه ... فليس في مقدور أحد ان يتحمل لمفرده .. هذا كله.

في دار الضيافة (السليمانية) تحلقنا حول المناضد جماعات جماعات .. تناولنا طعام العشاء .. وجرتنا الأحاديث إلى كل مكان .. ونودي على المشاركين واحدا .. واحدا .. يتسلم أحدنا شعار المؤتمر المنقوش بعناية على النحاس الأصفر .. يلقي كلمة شكر وتقدير ثم ما يلبث ان يرجع لكي يفسح الطريق للذي يليه ..

ما يلفت الانتباه ان كلا منا تسلم شعارا ... يحمل أسمه بالذات بابتسامة عذبة من الأخ الدكتور (فارس قايا) مدير مؤسسة الثقافة والعلوم التي نظمت المؤتمر ..

مؤتمرات عديدة شاركت فيها ، كنا نتسلم شعارها الذي يحفر على نحاسه عنوان المؤتمر وزمنه ، ومكانه .. أما هنا فإن أسماء المشاركين أنفسهم حفرت على النحاس .. جنبا إلى جنب مع العنوان والزمان والمكان .. قلت وأنا اتسلّم الشعار فتقع عيني على هذه الخصوصية التي يعرف الاخوة في تركيا كيف يعطونها المساحة التي تستحقها : هذه أغلى هدية تسلمتها في حياتي .. وأنا بالتالي أعجز عن الشكر ! تخونني الكلمات !

دفق المحبة النورسية يغمر المكان .. وثمة نسمات مترعة ببرد الليل القادم تلفح الوجوه بحنان .. وموشح تركي يتدفق كالشلال من مكان ما في الدار ... ما الذي بمقدور المرء ان يفعله سوى ان يرتشف لحظات الوفاق الفريد بين الروح والحس والوجدان .... لحظة لحظة .. متخففا من كل صنوف المعاناة والعذاب .. متحررا ... من كل صيغ التعاسة التي تكاد تغرق الإنسان في عالم الفصام النكد بين نداءات الحياة الدنيا وأشواق الروح.

(٨)

عذبة رائعة كانت الرحلة إلى (بورصة) ليس فقط لأننا أوغلنا أكثر فأكثر في جبال تركيا وبحارها وأشجارها وعيونها وروابيها الخضراء ، وصرنا جميعا ... أصدقاء للنهر والبحر والشجر والنبع والشلال .. بل لأن الأخوة النورسيين أنفسهم الذين جاءوا معنا إلى (بورصة) أو الذين استقبلونا هناك واصطحبونا ليومين ، كانوا كالأشجار والعيون والجبال والبحار والأنهار .. يعلمونك كيف تتوافق مع نفسك .. مع الآخرين .. مع كل شيء من حولك ..

يبدو لي أن (الوفاق) هذا ، هو أغلى ما في الوجود .. وأن (الإسلام) الذي يشتق اسمه من هذا المعنى العزيز نفسه ، إنما يريد ان يمنحنا هذه الهبة القيمة التي لا تقدر بثمن .. وأن الرسول المعلم عليه أفضل الصلاة والسلام ، ما كان يريد في نهاية عمر حافل بصنوف المشقة والمرارة والعطاء سوى ان يضع أمته ، والبشرية كلها ، في نهاية الأمر .. على الطريق الصحيح، منهيا عصر السبل المتفرقة ، المعذبة ، التي استنزفت الإنسان وما تزال.

البداية كانت في حدائق (أمريكان) عند ضواحي اسطنبول .. كان الصباح مشرقا جميلا .. فوجئت وأنا أدلف إلى المكان أنه يضم جناحيه على حشود من الأشجار البرية العالية وان كل واحدة منها تختلف عن الأخريات ... مهرجان مثير لإبداعية الله جل في علاه.

أشجار متفردة ، مهندسة بعناية : الأوراق والأغصان والجذوع والالوان السخية المنتشرة عند حافاتها بغير حساب .. بعضها .. كثير منها .. أراه لأول مرة .. لم أجد شبيها له في بلدي، أو أي مكان آخر من العالم ... في المسافات بين شجرة واخرى كانت يد الانسان قد تدخلت لكي ترتب الحلقات والسنادين المترعة بالأزهار ، والتي تضفي بعروضها اللونية السخية .. بعبقها الذي يتصاعد مع تصاعد دفء الشمس .. على (امريكان) نكهة عذبة لا يتسنى نسيانها بسهولة.

تناولنا الفطور هناك والتقطنا صورا تذكارية .. ثم ما لبثنا ان عبرنا جسر البسفور الطويل صوب الضفة الاخرى .. بعد نصف ساعة كنا ندلف إلى احد المراكب لكي يجتاز بنا جانبا من (مرمرة) مختصرا الطريق البري الطويل .. حافات البحر الشرقية تلوح للمسافرين بقراها الانيقة وخضرتها الواعدة ...

أما الحافات الغربية فتصعب رؤيتها ، حيث يمضي البحر بعيدا باتجاه الغرب.

صلينا الظهر في مسجد صغير أنيق ، ثم انطلقنا بالسيارات صوب (بورصة) .. وصلناها عصرا .. مدينة كبيرة مترامية الاطراف ... لم يكفها ان تلتهم السهل الشرقي حتى مضت غربا .. لكي تتسلق المرتفعات المطلة عليها .. ودائما يصير الجامع .. الموغل في ذكريات العقيدة والتاريخ المتشكل على يد السلاطين الكبار .. الذين كانوا يحلمون بفتح أوروبا ومواصلة الطريق الذي بدأه معاوية وسليمان وهارون الرشيد .. دائما يكون الجامع هو مركز الثقل في معمار المدن التركية ونقطة الجذب والطرد فيها ... اشار احد الاخوة ونحن نجتاز المدينة إلى بعض هذه الجوامع : عثمان .. أورخان .. وبايزيد ... تثوى أجسادهم هناك ومن حواليهم أجداث الابناء والاحفاد ... لكأنهم أرادوا ان يبدأوا من الجامع وينتهوا اليه ... متشبثين في حياتهم ومماتهم بالمكان الذي جعلهم سادة على العالمين ... ومن أجل ان يكونوا أوفياء ، جعلوا منطلقهم إلى العالم من الجامع ثم عاد كل واحد منهم بعد عمر طويل من الجهاد الدامي لكي يثوى هناك ..

تذكرني القبور المزدحمة للأبناء والأحفاد .. المتحلقة حول قبور الآباء والأجداد .. بلوحة سريالية ، لا أدري لماذا ... ربما لأنني وجدت نفسي .. بشكل من الأشكال .. في حالة حلم من نوع ما .... حلم يتأبى على التحليل المنطقي ويستعصي على الأسباب.

(٩)

في صبيحة اليوم التالي نركب (التلفريك) الذي يصعد بنا على السلك الرفيع صوب الأعالي .. ثمة خوف من المرتفعات الشاهقة قادم إلى من مغامرة خطرة زمن الطفولة .. يجعلني أتشبث أكثر فأكثر .. بحافة المركبة وهي تئز بثقلها ميممة صوب القمة التالية ... يقول لي أحد الاخوة .. أنظر إنها لوحة رائعة ..

على مضض أحدق إلى أسفل .. الوادي العميق أصبح أكثر نأيا ... وقعره البعيد .. لم يعد يرى .. والشيء الذي يسرق النظر ، كما يقول الفنانون .. الشيء الذي يضيع معه التوجس والخوف .. هو رؤية أوراق الأشجار الكثيفة من فوق.

برؤية طائر ، كما يقول الفنان أيضا ... أطل على الغور البعيد .. مهرجان لوني لعالم جميل يدلف إلى الخريف .. يتداخل في أوراقه الكثيفة وعلى صفحاتها المتشبثة بالبقاء كل ما يعرفه الانسان من درجات لونية تبدأ بالأبيض وتنتهي إلى الأخضر العميق ، مجتازة الأصفر والبرتقالي والناري ، والأحمر والبني بتداخل مدهش تغيب فيه الفواصل والحدود.

نصعد إلى قمة أكثر ارتفاعا ... في (تلفريك) آخر ... نغادره بعد قليل .. قمة مستوية تمتد فيها المساحات .. هاهنا أيضا لا يحار المسلم أين يصلي .. المسجد الأنيق ، الذي تلقى لمساته الأخيرة .. يناديك ... أقول للأخوة دهشا : الدين والدنيا .. أشير إلى الجامع الأنيق القريب من السماء وإلى الأرض المفروشة بالزهور والحشائش البرية .. إلى الأشجار المتناثرة على غير انتظام وإلى العوائل السعيدة .. والأطفال ... والصبيان وهم يتقافزون هنا وهناك .. وثمة روائح الشواء التي تفعم الأنوف وتثير الشهية ترتفع من مناقل الفحم المشتعل ... والمبعثرة في كل مكان ...

بورصة واسطنبول قبلها .. علمتنا أشياء كثيرة ... هاهنا ، اللحظة ، أجدني في حالة من الوفاق النقي كالبلور .. الوفاق الذي لا يكدره شيء بين أفراح الروح وتوقها للصعود أكثر فأكثر إلى فوق .. وبين نداءات الحس التي تجد في القمة العالية القريبة من السماء .. في الخضرة الواعدة .. في الاشجار والينابيع .. في الشمس الوانية والسحب المبعثرة التي تمتص أشعتها بشغف .. في القمم المغطاة بالثلج .. في الناس ... والحركة وبريق الاشياء .. تجد نفسها تماما .. فتلتحم بالوجود أكثر فأكثر .. تتعاشق معه .. وتصير وإياه شيئا واحدا ..

يختار الاخوة مكانا جميلا نتحلق فيه على المنضدة التي صفت عليها بعناية أطباق التين والزيتون .. الى قريب منا جيء بمنقل كبير أشعلت فيه النار .. بعد لحظات كانت رائحة الشواء تختلط بعطر الارض الرطبة .. والازهار البرية ... وأوراق الشجر المتساقطة بهدوء.

يريدون ، كعادتهم دائما وكما علمهم رسول الله عليه السلام .. ان يقول احدنا شيئا قبالة نعمة الله ، ونحن نوشك على الانتهاء من غدائنا .. كان شلبي وأصحابه قد رحلوا قبل يومين عائدين .. يجيء الدور علي هذه المرة ، فلا أجد أعذب وأجمل مما كان يقوله رسول الله (صلى الله عليه وسلم) إثر كل طعام مخاطبا المضيفين : (أكل من طعامكم الابرار وصلت عليكم الملائكة وذكركم الله فيمن عنده) .. دائما ومن خلال أشد الممارسات كثافة وحسية ، كان النبي المعلم يذكرنا كيف تكون المفردة اليومية .. الملذة المتوافقة مع الخلق والتكوين وطبائع الاشياء .. طريقا للصعود الى فوق .. ليس ثمة أي تناقض او ارتطام .. الهسيس القاسي في أعماق النفس البشرية المعذبة .. الممزقة ، لا تجده هنا ... بينما تصير متع الحس في الأديان المحرفة خروجا على الناموس ، فيتألم الانسان ويوغل في شراييه الإحساس الآثم بالخطيئة ..

هنا ... الدين السمح المتوافق مع كل شيء جميل ممتع عذب في هذا العالم ، يقول شيئا اخر ويعطي شيئا اخر ، هاهنا ... قبالة المائدة نفسها ، تصلي الملائكة ، ويذكر الله جل في علاه .. عند الملأ الاعلى .. كل أولئك الذين شبعوا فحمدوا الله.

لست أدري ان كان قد انتاب الاخرين الاحساس نفسه الذي يمسك بخناقي بين الحين والحين فيعذبني .. هذا التناقض الحاد بين ما أراده الاسلام وبين ما تمارسه كل الاديان المحرفة والمذاهب الاخرى .. هذا التقابل بين الوفاق والتبعثر .. بين الانسجام والارتطام ... بين ما يجب ان يكون وما هو كائن .. يتشكل في نقطة ما من وجدان المؤمنين ، صوتا .. معذبا .. يئز في الاعماق .. ثم ما يلبث ان يدوم مصعدا الى فوق متحولا الى صرخة مكبوتة تريد ان تغادر الاسر ، ان ترفع شكواها قبالة الكون والعالم والوجود ، مذيبة كل عذاباتها ... وتمنياتها .. في تساؤل طويل مديد : لماذا ؟

ينحدر بنا (التلفريك) الى بورصة كرة اخرى .. كنا على موعد معها .. هكذا تبين لي فيما بعد .. فعندما تصير في العنفوان .. تنسى بدايات الاشياء ونهاياتها .. تنسى حتى المواعيد المضروبة في وقت ما بينك وبين المدن التي أحببتها ..

أما الان .. اللحظة .. فإن السيارات تصعد بنا الى شراييين بورصة الغربية موغلة في المرتفعات .. متعرجة متماوجة .. تغيبك حينا عن السهل الفسيح الممتد الى ما لا نهاية .. ملاحقا مشرق الشمس .. ثم ما تلبث ان تطل ثانية على المدى المفروش قبالتها تماما ... بالبيوت والاسواق ، والشوارع والناس ..

سيارات اخرى كثيرة كانت تصعد هناك .. في الاصيل .. حيث يوم العطلة الذي ينطلق فيه الناس ليروا ويسمعوا ويذوقوا ... لكنها جميعا .. لم تكن كسيّارتنا .. سيارة الاخ (س) عضو مجلس الشعب في بورصة .. كنت أجلس الى جواره وهو يقود سيارته .. والى الخلف جلس الأخ محمد رشدي .. مكتوب عليه أن يذوب مثلي في الصوت التركي المنبعث من جهاز التسجيل ... شفاعة يا رسول الله .. كرة أخرى الاخ (س) يعرف ماذا يختار ... أكاد وأنا أنصت إليها أنطوي على عذابات الدنيا .. على تشرد المسلم وغربته في هذا العالم .. تمنحني وهي تتدفق عذوبة يصعب نقلها للآخرين .. يستعصي وصفها على الكلمات .. لا تجيء من قوانين الفيزياء .. ومعادلات السلم الموسيقي .. إنها هنا تتدفق من فوق .. من مكان ما لا أدري أين تتشكل بداياته القصية وأين تنبجس ينابيعه الاولى ... أفي الروح الموغلة في المجاهيل .. أم في السماوات القصية ؟! أتذكر من يتوجسون خيفة من الموسيقى .. أعرف تماما .. لماذا .. إنها في الحالات الاعتيادية تفصلهم عن دفق الايمان .. عن لحنه الباطني المتفرد الذي يرفض ان يشاركه صوت اخر .. عن التوافق العفوي مع السنن والنواميس والاشياء ... وتدخل ... كشيء نشار بينهم وبين العالم .. لذلك هم يخشونها .. ولعلهم أيضا .. يحرمونها ، وهم في هذا محقون ...

أما هنا ، فإن الامر يختلف ، إن الموسيقى نفسها تصير نداءا يضعك في قلب التوافق بين الظواهر والاقطاب .. تمنحك مكانا .. يعلو على الاشياء العابرة المنغمرة .. تسلمك مفاتيح الطريق الى الكون ، حيث ينصهر كل شيء في هذا الوجود في إيقاع متوحد .. في نبض يخفق بإيمان من نوع صاف كالبلور .. يشع بالحزن والفرح ... بالمحبة والثورة .. بالعطش والارتواء .. وبكل الثنائيات التي تنسجم ها هنا ... وتتناغم لكي ما تلبث ان تخرج صوتا عذبا متوحدا ينطوي على كل النداءات المستفزة للوجدان الإيماني في هذا العالم.

والشريط يدور .. الصوت العذب ينادي الله الواحد جل في علاه .. والسيارة تمضي مصعدة ، مجتازة الطرق المتعرجة والمنحنيات الصعبة ... تقف لدقائق عند شجرة حور عمرها مئات السنين ، جذعها الهائل يغور في طبقات الارض ، أغصانها المتعرجة الممتدة بعيدا .. بعيدا .. جدا ... تغطي مساحة واسعة من الفضاء فلا تنكسر ولا تميل .. معجزة الخلق هذه الشجرة .. نتعلم منها كيف يكون التوازن العجيب وكيف تمضي السدم والنجوم في رحيلها الكوني دون ان تقع إحداها على الأخرى.

ما كنت أدري إن كان (محمد رشدي) يكافح الدموع بصمت مثلي ... فأنا أعرفه جيدا لا يطيق الصبر .. وهو كلما سمع تأوه الناي ، صرخ : إنه يحترق ... ولكني أستطيع ان اجزم أننا سوية إزاء النداء الملتاع للصوت وهو يدوم مصعدا باتجاه نقطة ما في الملكوت .. صارخا .. شفاعة يا رسول الله .... أجزم أنه كان يبكي بصمت مثلي.

للحظات خشيت ان يراني الأخ (س) .. ولقد راني فعلا ... ولكني أقول في نفسي لا بأس ، فهو الآخر يعرف جيدا .. هو الأخر اكتوى قبلي وقبل رشدي بالنار ... ونحن جميعا وأي مؤمن في الدنيا ، عندما يضعه الصوت المتلوي الحزين المصعد من أعمق غور في الوجدان البشري ، قبالة النبي المعلم ، صارخا : شفاعة يا رسول الله .. لا بد ان يبكي ..

ان يوم الحساب عسير ... وخطايانا كثيرة كالجبال .. وقلوبنا أكسدتها الأحزان فعلاها الصدأ .. وهي اللحظة تنتفض كعصفور بلله القطر .. متشبثة ، في يوم الهول الآتي ، بأذيال النبي منادية إياه بلهفة وتوجع : شفاعة يا رسول الله !!

(١٠)

الدمع هو المطهر
رعدة الحزن الموغل في الروح جواز السفر إليك
يا نبي المنفيين والمعذبين والغرباء
الدمع يذيب الآثام والخطايا
يزيل الحواجز ويلغي المسافات بيننا وبينك
فنهتف ، متوحدين .. منتظرين اليوم الذي سنهرع فيه إليك لكي نرفع نداء التوسل بين يديك
شفاعة يا رسول الله !

***

عشرات السنين التي عشتها تبدو الآن وكأنها هباء
محبتك تعمر قلبي .. تسري في أوصالي .. فتمنحني الحياة ..
ينتفض العقل والقلب والحس والوجدان كما لو أنها تبعث اللحظة
الآن .... الآن فقط ... أحس أنني أحيا
أنت الذي تمنحني الدفء والفرح
تأخذ بيدي من شد الأرض وعتمة الطين صوب الأعالي حيث تقطر السماوات بالنور فتسكر الروح منتشية وهي تتلقى الدفق الآتي من فوق.
أتواجد يا رسول الله
أنتفض عشقا وأكاد أذوب
أضع هذا كله .. أصهره في نداء ينزف من القلب المثخن بالجراح :
شفاعة يا رسول الله !

***

في اسطنبول ... في بورصة .. وأنا استمع موشحا .. تركيا قبالة شجرة الجنار الباسقة
إزاء كل الاشياء الجميلة في هذا العالم
نهض (النورسي) لكي يقف قبالتي
لم استطع ان أتبينه للوهلة الاولى
شيئا "فشيئا" .. اتلقى صوته المتهدج .. يتماوج عميقا "مؤثراً"
يشير بكلتا يديه الى الانهار والينابيع والشلالات والجبال ..
اللغة التي يحكي بها ما كانت تركية ولا عربية
إيقاع متفرد عجيب كان يجتاز غشاء القلب ويمضي الى الاعماق
تبين لي وهو يشعل النار هناك
أنه كان يجأر ملتاعا : شفاعة يا رسول الله.

***

في جوامع الفاتح وأحمد وسليمان
يتعالى النداء نفسه .. الوعد نفسه .. العشق نفسه ..
هذه الأصوات التي تذوب وتذيب
آه من العشق الكوني الذي تعلمته هناك
ان تصير والورد والشجر شيئا "واحدا"
إن تتعاشق مع الأنهار ، والبحار ، والوديان والجبال ..
ان تسبح معها بحمد الله ..
سأحملك معي يا اسطنبول وأهديك لبلدي
ليس ثمة أغلى من هذا يمكن ان يقدمه العشاق لمن يحبون !
أحمل معك كل ما انطبع على غشاء القلب وأوغل في مسارب الروح والوجدان
أشياء كثيرة عرشت هناك
ولكن ليس أبدا .. كذلك الصوت العذب
الصوت المتلهف .. المترع حزنا وهو يتلوى متوجعاً في موشح تركي :
شفاعة يا رسول الله !

***

أعطيتموني المحبة أيها النورسيون
فماذا أعطيكم ؟
كل ما سأقدمه لكم لن يكون كفاء ما أعطيتموني ، فماذا أعطيكم ؟
في الطريق الى (كوزلجة) استمعت لأول مرة إليه ..
بعدها ونحن نتسلق روابي (بورصة) سمعته مرة أخرى .. فبكيت
لن يكون بمقدور أحد يملك قلبا إلا أن يبكي
يهتز وجدا وهو يتلقى لوعة الصوت المتشكي من أعماق الروح
فما يلبث ان يتصادى في الفضاء الكوني الذي لا بدء له ولا انتهاء ..
ان يدوم مع الشمس والقمر والنجوم ... ويتماوج في دورة الأفلاك الكبرى
هناك في الأماكن القصية وهو يردد :
شفاعة يا رسول الله

***

رجعت الى داري فلم تعرفني زوجتي ولا أهلي ولا أولادي
كنت قد هزلت .. شحبت كثيرا ..
الوجد كان قد أكلني .. المحبة اعتصرتني
الحزن العميق طرد من قلبي كل تعلق بالأشياء ... والرغبات والموجودات ..
كان يؤلمني أنني لا أستطيع ان اقول لهم ما بي ..
ما يضنيني أكبر من ان تحمله اليهم الكلمات ..
لقد ذوّبني العشق .. انظروا ..
هاهو ذا يحيلني شبحا .. لا يكاد يرى ..
فاهتف : لقد برحني الوجد كما لم يبرحني شيء في هذا العالم ...
ترى هل سألتقيك مرة أخرى ؟

الرحيل الى الخرطوم

(١)

تنطلق الطائرة السودانية مغادرة عمان ، مبتدأة باسم الله ودعاء السفر الذي علمنا إياه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يتردد في جنباتها فيما لم نعتده في معظم الطائرات المحسوبة على جغرافية الاسلام.

أغمض عيني قليلا بعد عناء يومين من السفر البري القاسي بين الموصل وعمان .. كنت قد اضطررت لترك الحافلة البطيئة في منتصف الطريق خشية ان يفوتني موعد الإقلاع .. استأجرت سيارة صغيرة أكثر سرعة لكن إطاراتها كانت معطوبة وبين حين وآخر كان أحدهما ينفجر فأنجو أنا والسائق من النتيجة التي قد لا تحمد عقباها .. مرة كانت شاحنة كبيرة تندفع وراءنا .. على بعد أمتار ... بسرعة كبيرة .. لحظات ويجد سائقها نفسه على حافة سيارتنا التي انفجر إطارها وراحت تتأرجح متباطئة .. كادت الشاحنة ان تضرب السيارة وتسويها بالإسفلت ولكنها بإرادة الله انحرفت في اللحظة الأخيرة .. فنجونا .. كنا نقطع مئات الكيلو مترات بدون إطار احتياطي .. وكنت أقول في نفسي : لو أن انفجارا آخر يحدث فإن موعد الطائرة التي ستنطلق صبيحة الغد سيفوتني بكل تأكيد .. ولكني أخيرا .. وصلت عمان بحمد الله في أعماق الليل.

في صباح اليوم التالي اتصلت بالسفارة السودانية فأعلموني بأن تأخيرا اضطراريا سيغير موعد الإقلاع حتى الساعة الثانية عشرة مساء ... لقد أعطاني هذا فرصة جيدة لإنجاز أعمالي في عمان وتجاوز شد الأعصاب الذي طالما أرهقني في معظم رحلاتي ..

تلفاز الطائرة يعرض برامج عن السودان .. أرضا وشعبا وتجربة وتاريخا وتراثا .. أجدني للحظات في بيئة أفريقية يلتقي فيها العربي بالإسلامي بالزنجي بتوافق هارموني لا نشاز فيه .. كنت قد قرأت عن هذا كثيرا .. ولكني الآن أراه وأحسه .. الآن أمني نفسي بأني سألمسه وأعيشه .. واحدة من معجزات هذا الدين ، الذي قدر على تحقيق الوفاق الصعب بين الثنائيات المتعارضة تحت مظلته ، وبقوة روحه التي لا يقف أمامها شيء ، يلتقي الأضداد فيصيرون بقوة الكلمة التي أريد لها أن تعيد صياغة العالم بتناقضاته .. ومتغيراته ، اخوة ، ويتوحدون على الود والتعاون والمحبة .. يلتقون على المنطلق والمصير .. ومع ذلك فهم يحتفظون ، كل في دائرة إرثه التراثي وتاريخه وأذواقه وعاداته ، بخصوصياتهم دون ان يقول لهم أحد : لم تفعل هذا ؟

وأقول في نفسي ، والأفكار تنساح بي بعيدا باتجاه المستقبل المنظور : سيجيء اليوم الذي يجد فيه غير المسلمين في هذا البلد الطيب أنفسهم يلتقون مع مواطنيهم المسلمين .. مع اخوانهم المسلمين ، غير متخلين عن دياناتهم ، ولكنهم مدركون حتى آخر خلية في دمهم ، أنهم لن يجدوا في العالم كله مظلة ، كمظلة الإسلام ، يمكن ان تعطيهم كل ما يريدون ... ان تحمي

خصوصيتهم وان تمنحهم الأمن والاخوة والمحبة تحت خيمة الله الرحيم ، رب البشرية جمعاء .. سبحانه وتعالى.

كنت قلقا كعادتي وقد تغير موعد الإقلاع اثنتا عشرة ساعة عن المعتاد ألا أجد من يستقبلني في المطار ... فأضيع .. هذه أول مرة أزور فيها هذا البلد الشقيق .. لم يكن أمامي هذه السنة سوى فرصة واحدة ، فاعتذرت على مضض عن دعوتين أخريين من السودان نفسه ... إحداهما من مؤسسة بحوث الإيمان والثانية من مؤتمر حقوق الإنسان .. وقبلت الثالثة من جامعة القران الكريم والعلوم الإسلامية لأنها جاءت متزامنة مع إجازتي الربيعية في جامعة الموصل .. كنت أتمنى أن ألبي الدعوة الأولى فإن هناك الكثير مما يمكن قوله ، وأن أشارك في الثانية .. لكي أرفع صوتي جنبا الى جنب مع أصوات كل الخيرين في هذا العالم في مواجهة اللعبة التي تمارسها الصليبية الغربية بزعامة أمريكا ضد عالم الإسلام وأحلامه باسم حقوق الإنسان .. أتذكر استنتاج المؤرخ البريطاني المعروف (سير توماس أرنولد) بعد أربعين سنة من بحثه عن (الدعوة الى الإسلام) من ان تاريخ هذا الدين لم يشهد عبر ثلاثة عشر قرنا حالة واحدة اكره فيها غير المسلم على اعتناق الإسلام ... أتذكر أيضا حشود الشهادات التي تدفقت عبر عشرات المؤلفات لباحثين من الشرق والغرب .. من أن المسلمين واليهود والبوذيين والزرادشتيين والصابئة غيرهم ، وجدوا تحت مظلة الحكم الإسلامي أقصى حالات الوفاق وتكافؤ الفرص ، وانفتحت أمامهم المجالات للتحقّق الذاتي والديني والاجتماعي والثقافي والاقتصادي فيما لم يشهده تاريخ أية أمة أخرى في العالم ..أتذكر ما حدث في أمريكا حيث يصير حتى الحزب الشيوعي (الأممي) الذي يرفض التمييز في إطار كفاحه الطبقي .. حساسا تجاه الأسود والأبيض ... فلا يسمح لأديب شيوعي (كريتشارد رايت) شد الرحال الى نيويورك للمشاركة في مؤتمر شيوعي هناك ، ان ينزل في الفندق المخصص للمشاركين ، وأن عليه أن يبحث عن مكان آخر لأنه زنجي ... فيضطر للمبيت في أحد المطابخ البائسة ثم يغادر المكان في صبيحة اليوم التالي لاعنا الأممية والشيوعية التي لا تتجاوز حدود الشعارات وتنسى الإنسان.

حقوق الإنسان .... فمن الذي جعلها لأول مرة .. وربما لآخر مرة في التاريخ .. أمرا مشهودا بقوة تعاليم كتاب الله وسنة رسوله (عليه أفضل الصلاة والسلام) ؟ أفلا تكون مفارقة تدعو الى السخرية ان يقوم المعسكر الغربي المترع حتى النخاع بالتمييز العنصري ، بحملته هذه ضد التجربة السودانية لكونها تجاوزت مطالب حقوق الإنسان ؟

كلمة حق يراد بها باطل ، قلت في نفسي وأنا ارتشف الشاي وأطل من النافذة فأرى الأضواء المبعثرة تنتشر متباعدة لا تكاد ترى وسط ليل أفريقيا العميق ...

في تاريخنا أتيح حتى للعروق المستعبدة ان تشكل دولا .. كما حدث زمن المماليك .. وفي أمريكا لم يتح لزنجي ان يصل الرئاسة .. والى وقت قريب لم يكن يسمح للسود أن يدخلوا

مطاعم البيض وفنادقهم ومنتدياتهم ... وها هي ذي أمريكا تقفز على ممارساتها النقيضة لأبسط حقوق الإنسان ، لكي تلاحق باسم هذه الحقوق المدعاة ، تجربة لا تنوي لمواطنيها وجيرانها والعالم كله إلا المحبة والانسجام والوئام.

أشياء كثيرة قيلت في مؤتمر حقوق الإنسان الذي فاتني حضوره مكرها وأشياء كثيرة كان يمكن أن تقال في ندوة مؤسسة أبحاث الإيمان التي جعلت نصب عينيها إعادة الوفاق الضائع بين العلم والايمان ... وها هي ذي الدعوة الثالثة من جامعة القران الكريم والعلوم الإسلامية تجيء في وقتها تماما فأهرع لتلبيتها وأنا أحس بسعادة غامرة لأنها ستتيح لي أن أرى السودان وأن أوغل في أفريقيا لأول مرة في حياتي .. كنت قد قرأت الكثير عن هذه القارة التي تعد بسخاء .. وفرض علي مؤلفي المتواضع (ملامح مأساتنا في أفريقيا) أن أجوس بعض الوقت في جغرافيتها وتاريخها الحديث والمعاصر .. ولكن وكما يقول المثل ليس من جرب كمن لم يجرب .. وها أنا ذا بعد أقل من ساعة سأجد نفسي على أرض السودان الأفريقية .. التي طالما حلمت بأن ألتقيها وجها لوجه.

مشكلتي أنني قلق أكثر مما يجب .. وكلما اقتربت الطائرة من هدفها حيث بدأت أضواء الخرطوم تتلامع من بعيد ، ازددت قلقا .. الموعد تغير تماما اثنتا عشرة ساعة .. فمن سيستقبلني في المطار ويدلني على الطريق ؟

فجأة .. أسمع صوتا من مكبر الطائرة يناديني .. يطلب مني الوقوف للتعرف علي .. أنهض قائما .. فإذا بشاب سوداني يتقدم إلي مصافحا : أرحب بك باسم اتحاد الطلبة السودانيين وسأصحبك وعدد من الضيوف إلى فندق الهيلتون ان شاء الله.

أشد على يده بدوري فها هو ذا ينقذني من حيرتي .. وكما توقعت فقد انتظر المستقبلون طويلا حتى يئسوا .. فعادوا من حيث أتوا وذهب بي الأخ (عبد الرحمن) الى الفندق لكي أقضي ليلتي هناك ..

في صبيحة اليوم التالي أتلقى مكالمة هاتفية من عدد من إداريي جامعة القران الكريم .. قالوا إنهم سيمرون بي بعد دقائق لاصطحابي الى فندق القرية الخضراء حيث ستكون إقامتي ..

كانت وجوههم تنضح بشرا وقلوبهم تفيض بالمحبة .. سيتضح لي أكثر فأكثر .. ان السودانيين كالأتراك تماما .. يتمحضون للمحبة .. وأن الذي يرجع من ديارهم ، طال مكوثه هناك أم قصر ، قد ينسى كل شيء إلا هذه المحبة !!

(٢)

قمنا بجولة سريعة في جوانب من الخرطوم وأم درمان وتوجهنا أولا إلى الجامعة التي دعتني .. عن بعد كانت قبتها المتفردة الكبيرة بغطائها المعدني الذي ينطوي على آلاف المخروطات ، ومنارتها البديعة الصاعدة كالسهم .. الى السماء .. بطاقتي دعوة ، وقلما مشهورا الى فوق يذكر الإنسان بكلمة (أقرأ) التي أبتدأ بها الوحي الأمين رحلته الطويلة مع النبي الأمي عليه أفضل الصلاة والسلام.

أخي الدكتور أحمد على الإمام .. مدير الجامعة ، يعرف كيف يتلقى إخوانه بالأحضان .. إن له ، كما للأخوة السودانيين جميعا ، طريقة متميزة بالترحيب : أن يأخذوا أخوتهم بالأحضان .. مربتين بمحبة تتدفق عفوية عذبة من القلب وتشعر بها وهي تسرى في أيديهم وأكفهم لكي تنقل خطاب الروح الى الآخرين .. الأحضان الودودة نفسها .. المترعة بالبشاشة والمحبة في الله التي طالما تعاملت معها وكدت أمسك بها في اسطنبول.

عبر لحظات مترعة بالإحساس نفسه التقيت الأخوة المعاونين والعمداء وعدداً من الأساتذة .. لا تمل من الجلوس معهم .. كان كل واحد منهم منجما تنسرب في حجارته الكريمة عروق من جمال الروح يصعب نقلها بالكلمات ..

اصطحبني بعضهم الى فندق (القرية الخضراء) .. لم يكن كبقية الفنادق التي أعرفها .. الإدارة وصالة الاستقبال في مكان .. والمطاعم والكافتيريا في مكان آخر .. أما الغرف فمبعثرة هنا وهناك .. منفصل بعضها عن البعض كأنها (فيلات) منعزلة تحس وأنت تدخلها أنك في منزل مستقل وليس في فندق مما يعرفه الناس .. وبين هذا كله تنتشر الحدائق والممرات والبحيرات الاصطناعية .. بينما تركت مساحات أخرى تنمو وتتكاثر وتزهو على هواها .. لكي تذكرك بأفريقيا كما أراد لها الله سبحانه ان تكون .. وأنت تجتاز الممرات في طريقك الى غرفتك قد تلتقي بسحلية خضراء او سمراء تحدق فيك بألفة ثم ما يلبث طبعها الأفريقي الحار ان يغلب عليها فتنفلت من بين يديك هاربة لكي ما تلبث ان تغيب في الأحراش .. على بعد خطوات فيما وراء الحاجز الترابي يمتد النيل هادئا غنيا عميقا وقورا .. هذا النهر الذي انطوت قصته في ملحمة الخلق على ألف أسطورة وأسطورة .. هذا الذي منح بركته قبائل وجماعات وشعوبا وأمما .. لا يزال منذ آلاف السنين يقوم بالرحلة نفسها .. ويعطي للسودان من نفسه ما لا يعطيه لأمة أخرى في الأرض ... هذه القارة الموصولة من حافات الاستواء حتى حدود مصر عند مناطق النوبة تجعل السودان أرض الوعد القادم وسلة لغلال العالم الذي يتضور في أصقاع أخرى جوعا ... وينتظر المخلص ... لكن أيدي الشيطان وهي ترقب جيدا ما الذي يريد السودانيون ان يفعلوه، تمد زوائدها السبع لكي تخنق المعجزة ، ويمنع السوداني والعربي والأفريقي من ان يتلقى

الدفق الإلهي الذي يعد بالكثير .. ترى هل سيقدر للشر ان ينتصر على الخير والاعتقال اللاإنساني لوعد الأرض ان يمضي الى هدفه دون ان تكسره سواعد السودانيين أنفسهم .. تلك التي قدرت .. ولأول مرة .. على ان تشق في قلب الصحراء .. اثنتين من الترع الكبرى في العالم ... لكي تسقيا الصحاري العطشى بسخاء النيل الذي ماله من نفاد ؟!

أضع أمتعتي في الغرفة وأخرج بمعية الأخوة من جامعة القران الكريم .. لتناول الغداء في المطعم الأنيق .. أطلب سمكا ... فهو وجبتي التي لا أكاد أملها ، فيطلبون الشيء نفسه .. انهم حتى في هذه يشعرون ضيوفهم بحالة التوافق الجميل.

أفتح التلفاز وأنا مطمئن الى ان عيني لن تقعا على ما يؤذي او يثير .. منذ أربع سنوات، في فندق يحمل الاسم نفسه .. عند ضواحي باريس ، ضغطت على زر التلفاز فصدمني عرض يصير فيه الإنسان حيوانا مقرفا .. وتعهر المرأة فتفقد أيما صلة لها بسويتها البشرية ... كائنا رخيصا يمارس الجنس كالذي يحدث في (جبلاية) القرود وحدائق الحيوانات السفلى .. هناك في سقف العالم المتحضر ينحدر الإنسان الى بئر لا غور لها .. وهاهنا قبالتي في السودان التي بدأت منذ سنوات فحسب تشق طريقها الى فوق .. محاولة الإنسان استعادة سويته التي أرادها له الله .. تلك هي المهمة الصعبة والامتحان القاسي ، والتحدي الذي يجابه السودانيين اليوم .. وأغلب الظن أنهم ... بقوة العقيدة التي جاءوا لكي يضعوها في قلوبهم .. ويرسموا بمطالبها خطوط حياتهم بكل تفاصيلها ومفرداتها ، سيقدرون على اجتياز الامتحان .. وسوف يقدمون للعالم .. بغض النظر عن موقعهم في قارة لا يزال الكثيرون ينظرون إليها بيقين مهزوز .. حالة أكثر ملائمة للإنسان من كل المحاولات والتجارب الأخرى .. التي ملكته كثيرا .. كما يقول أريك فروم .. لكنها منعته من ان (يكون).

(٣)

في لحظات الشفق الواني أخرج لكي أتجول في الشوارع المحيطة بالقرية الخضراء .. أريد ان أشم رائحة أفريقيا .. اجتاز أحراشها البرية وأنظر عن كثب الى كل أولئك الذين حباهم الله قلوبا بيضاء بلون الثلج .. كل واحد منهم كان يبتسم بلا تكلف.

تحس كما لو أنه يرسم البسمة بريشة سحرية تستمد لونها من أغوار الروح المترعة بالمحبة والصفاء .. أحاول مرارا أن أسبقهم بالتحية .. ولكني أعجز .. لكأنهم مفطورون على توزيع تحاياهم للرائحين والغادين .... مررت بشلة من الاطفال يلعبون على حافة الطريق .. عندما التقي أطفالا أحبهم .. أصير مثلهم طفلا .... أتمنى ان ألعب معهم .. ان اضع عن عاتقي هموم الدنيا .. أتخفف منها جميعا .. وأندفع مع الصغار متقافزا أصرخ وأغني ، وأسترجع

فرحي القديم .. فرحي الضائع .. هم أدركوا هذا فابتسموا بحرارة ودعوني بلغتهم الخاصة ان أظل معهم .. قبلت أثنين منهم بشغف .. ورفست الكرة بعيدا وهم يتصايحون ، واستأنفت سيري .. ثمة بضعة كيلومترات تفصل الممر الضيق عن الشارع .. من بعيد يجيئني صوت المؤذن عذبا حلوا مترعا بالنداوة والصدق ... أتذكر الاصوات العذبة التي ظلت ترفع النداء على مدى مئات السنين .. أتذكر كل الذين ركزوا رايات **(لا إلـه إلا الله)** في تخوم أفريقيا السمراء .. كل الذين أنشئوا دولا وقادوا حشود الوثنيين الى الإيمان ، وألوف المتخلّفين الى التحضّر .. كل الذين أخذوا على عاتقهم ان يرفعوا السيف والبندقية بوجه الغزاة (البيض) الذين جاءوا من قارات الدنيا البعيدة لكي يسلبوا الأفريقي كل ما يعتز به ويعضّ عليه بالنواجذ .. خط طويل من الشهداء والقديسين قدمتهم أفريقيا من أجل ان تتجذر كلمة **(لا إلـه إلا الله)** في الأرض الواعدة التي سيقدر لها ان تغني خارطة العالم وأن تنشئ دولا وإمبراطوريات .. وأخيرا ، ان تقدم الوعد في قلب القرن العشرين .. على ان كلمة الله وتعاليم رسوله آتيتان الى السودان لكي تمنحا العالم مرة أخرى الأمن والسكينة والتوحّد والرضا والإحسان .. وأنه ليس ثمة قوة في الأرض بقادرة على ان تصد المحاولة عن المضي الى هدفها الذي طالما تاق إليه الإنسان الضائع في عالم لم يعد يأبه بالإنسان ..

أحس وأنا أقفل عائدا .. عبر الطريق نفسه .. أنني أتوحد مع الأرض ... والإنسان والنهر .. والأحراش .. والمنائر .. المنتشرة بسخاء هنا وهناك .. أنني أتوحد مع الصوت الواحد الذي ينبثق عذبا مؤثرا شجيا ، من كل المنائر .. النداء .. الذي ليس ثمة في العالم كله أعذب ولا أشجى ولا أغنى منه ..

أقول في نفسي وأنا أدلف الى حدائق الفندق وأجلس قليلا في عزلة أحبها الى حد العشق، عند حافة بحيرة اصطناعية هناك .. هاأنذا أعثر على ما كنت أتوق إليه ..

رائحة أفريقيا ليست كأية رائحة أخرى .. يمتزج فيها عنف الخلق كما لو أنه يتشكل اللحظة .. يهيمن الزمن المتطاول الذي لا يعلم بداياته القصية الأولى إلا الله ، على اللحظة الراهنة فتحس كما لو أنك تعيش ، ليس تاريخ الإنسانية فحسب ، ولكن تاريخ الأرض التي طالما تحدث عنها كتاب الله وهو يحكي بآياته البينات كيف أصدر إليها الله سبحانه أمره العلوي لكي تصير مهدا يحتضن الإنسان القادم من مكان لا يعلمه إلا الله.

لا يهمني ان أبقى في جلستي هذه ساعات ، فإن دراستي في مصر ، على عشقي لها لم تشبع في نفسي توقي القديم لأفريقيا التي قرأت عنها كثيرا ... لكنني الآن أريد ان أراها .. ان المسها أشمها وأتذوقها ... ولكن يقطع علي خلوتي بين الحين والحين هاتف من هنا وهناك.

بدأ الأصدقاء والأحبة يتسامعون بوصولي .. كل يريد مقابلة او موعدا ... أتملص من العديد منها .. أؤجل بعضها الأخر .. ولكن ثمة مواعيد لا تستطيع منها فكاكا ... وعلى أية

حال ، أقول في نفسي ، فان أمامي أسابيع أخرى سأخلو فيها الى نفسي ، وسأبذل جهدا أكبر للإيغال في شرايين أفريقيا عبر البوابة السودانية ، ويومها سأحظى بالكثير ، فأبل ريقي ، وأروي عطشي القديم ..

(٤)

والخرطوم المثلثة ، كما يحب السودانيون ان يطلقوا عليها ، مدينة بسيطة يشطرها فرعا النيل إلى أقسام ثلاثة : الخرطوم ... الخرطوم بحري .. أم درمان .. وثمة عدد من الجسور يصل بين هذه الأقسام .. الشوارع فسيحة تمتد لمسافات متطاولة .. أحدها ... شارع النيل .. يسير بموازاة النهر وهو يصعد شمالا باتجاه أم درمان حيث تلتمع عن بعد قبة جامعة القران الكريم ، ومنارتها الأنيقة ، بطاقتا دعوة مفتوحة لكل العشاق الذي يبحثون عن الهوية الضائعة لهذا الوطن الذي وجد نفسه أخيرا وعثر على ذاته التي افترستها الصدمة الاستعمارية وذيولها من مغامري العسكر وشراذم الأحزاب ..

الى الشمال عدد من الفنادق العتيقة القادمة من عصر الاستعمار البريطاني .. أبنية أخرى للرئاسة والجيش وعدد من الوزارات ... الى اليمين يتلوى النيل ، رماديا حينا ، أزرق نقيا حينا اخر .. مختلطا بالطين الأسمر حينا ثالثا ...

مكان ما علقت عليه لوحة تحذر من السباحة فيه ... يلمح السائق (مقبول) التساؤل في عيني فيقول : قبل سنتين تعرض زورق يحمل شابا وعروسه لضربة تمساح .. اسأله ، وأنا أتذكر العلاقة الأبدية بين النيل والتماسيح .. فيجيب : قضى على العروسين بضربة واحدة وكانت لحظات محزنة.

والتمساح ؟

تمكن عدد من الأهالي من القضاء عليه .. ولكن بعد فوات الأوان ..

لم يقل لي أحد تعال لنريك حديقة الحيوانات .. ولا أدري حتى اللحظة ان كان هناك ، في الخرطوم ، حديقة للحيوان ، رغم أننا هنا على حافات الاستواء حيث الخليقة لا تزال تكافح من أجل الحفاظ على (النوع).

وأتلفت وأنا أتجول في شوارع العاصمة المثلثة .. عن بناية مرتفعة ذات أدوار ، فلا أكاد أجد لها أثرا ... العمارات في معظمها من دور او دورين ، لذا فأن الخرطوم تنفتح أكثر على السماء ، وتتلقى ضوءا اشد غنى من أية عاصمة أخرى .. ربما .. ومع الضوء لفح الشمس الذي يستعين عليه السودانيون بهدوء الأعصاب ، والمرح البريء والنكتة المعلقة على الألسنة.

ملعون هذا الاستعمار الإنجليزي ، الذي ابتلينا نحن أيضا في العراق بويلاته .. إنه يحكم البلاد والعباد عشرات السنين فلا يحاول ان يتقدم بهم خطوة واحدة ... هو بخبثه

المعروف، لا يحاول ما وسعه الجهد ، ان يتدخل في عقائدهم على المكشوف .. وفي الوقت نفسه لا ينفق درهما واحدا لرفع مستواهم العمراني والمعاشي.

الفرنسيون ، على العكس .. يضعون نصلهم مباشرة في دين المستعمرين ... ولغتهم ... لكي يذبحوهما .. بينما في الجهة الأخرى ينفقون بسخاء ، فإذا المدن المستعمرة تصير ، بعد فترة تقصر أو تطول ، وكأنها استعارت من أوربا نفسها تصاميمها وأناقتها ومعمارها الجميل ...

والانجليز أذكياء ... يعرفون جيدا أنهم لن يبقوا في البلاد التي استعمروها طويلا ... ولذا يتعمدون ان يتركوها خرابا .. والفرنسيون يركبون رؤوسهم ويجرون ضد قوانين التاريخ وسنن الله في العالم ... وفي يوم ما لم يكن أحد منهم أيا كان موقعه ، يتصور ان الجزائر .. مثلا .... يمكن ان تفلت من ارتباطها بفرنسا كأية ولاية فرنسية أخرى ... هل يمكن لليون او مارسيليا مثلا ان تخرجا عن انتمائهما لفرنسا (الأم) !

والانجليز لا يكتفون بإيقاف عقارب الزمن على حالة التخلف العمراني للبلد الذي يجثمون على أنفاسه .. بل إنهم قبل ان يرحلوا يزرعون فيه من المشاكل وقوى الشد والتعطيل ما يجعله يئن من التخلف لعقود أخرى ، فلا يستطيع الفكاك قبل مضي وقت طويل ...

يأخذني أحد الأصدقاء الى السوق الشعبي فأجدني قبالة أفريقيا كرة أخرى .. العطور .. والخرز الملون ، والمصنوعات الجلدية ، والمنحوتات الخشبية ، والأقنعة .. حيثما تلفت أجدني حيال جلد الثعبان الأسمر الفاتح المطعم بالبقع السوداء .. والأحزمة .. والأحذية والحقائب .. هنالك أيضا الحلي ذات الألوان الصارخة واللمسات الغرائبية ..

مهرجان للفلكلور الأفريقي هذا السوق ... وأنت تغادره تلاحقك روائح أفريقيا وطعومها الحادة وألوانها الحارة القادمة من خط الاستواء ...

(٥)

تلحظهم جيدا .. كنت قد سمعت عنهم كثيرا .. ولكنك الآن تراهم معك وقبالتك تماما .. هذا العشق المنفرد للكلمة .. للإبحار اليومي في أوقيانوس الفكر والثقافة .. هذا التوق لجعل كل الأشياء والمفردات والظواهر والموجودات .... تتشكل وتبدأ رحلتها في عالم التنامي والصيرورة والإبداع تحت مظلة الله .. انهم يعرفون جيدا .... ربما أكثر من غيرهم .. أنه ما من شيء في هذه الدنيا إلا وقد قال فيه هذا الدين المدهش .. كلمته .. أو بعبارة أخرى .. انه ما من ظاهرة أو شبكة من المعطيات إلا وهي مخترقة بقوة الإيمان الإسلامي المتعقل حتى النخاع .. مكشوف عنها النقاب لكي ما تلبث ان تصير تحت الضوء .. تحت الضوء تماما ... ومن ثم فإن أي قدر من العتمة او الضباب قد يكون دافعه وجود خلل ما في العين البشرية .. أو في

نسيج الظاهرة نفسها .. أما في الجانب الأخر .. فإن الإسلام قادر في أية لحظة ، إذا أحس التعامل معه ، على ان يعيد الأشياء الى مكانها الحق وان يضعها في محلها تماما ..

في الكيمياء ، في الفيزياء .. في الطب .. في الهندسة .. في النفس ، في المجتمع ، في السياسة ، في الاقتصاد ، في القانون وفي الإدارة .. كل كتل هذا الكون ونظمه .. كل صلابته المدمكة وخفقانه .. المدهش ... في مجاري الأفلاك .. والسدم والمجرات والشموس والأقمار .. في منسربات البروتونات والنيوترونات .. هنالك دائما كلمة الله الآمرة التي تشكل الأشياء والظواهر والموجودات وتقول لها كوني .... فتكون ..

هم يعرفون هذا جيدا .. وكنت تلمح في عيونهم هذا التوق المكافح للالتحام الذي ضيعته العلمانية الملحدة .. وهاهم الآن يسعون بدءا من أعلى الهرم الذي يتصاعد بنيانه باسم الله وصولا الى قواعده السفلى التي تجاهد لإرسائه على بركة الله.

كنت أتلقى كل يوم حشودا من الطلبات لإلقاء محاضرة هنا .... والمشاركة في ندوة هناك والإجابة على سيال الأسئلة المتوفرة التي تبحث عن جوابها الدوائر في خفقان الأفئدة ووهج العقول.

أقبل بعضها واعتذر عن البعض الآخر ... قدراتي محدودة ووقتي يضيق على الخناق والشد النفسي الذي تضعني فيه شبكة المطالب المكثفة يرهقني كثيرا ... ولكني انغمر معهم في العشق المتفرد ... أقرر ان أفرد شراعي وأن أبحر معهم وبما وسعني ووسعهم من جهد في دنيا الله التي يلتقي فيها العلم في أقصى حالات تعقلنه بالإيمان في أشد لحظات توهجه ... هناك حيث يصير الفعل المعرفي صلاة وصياما وحجا ..

تحدثت الى الطلاب في الدراسات الجامعية الأولية والى متخصصين في الدراسات العليا .. الى جماهير المثقفين .. التقيت الطلاب والطالبات .. حاضرت في منتديات النساء وفي معسكرات المجاهدين ... وإزاء نخب الموظفين في الحلقات الإدارية والإعلامية .. أجريت عددا من المقابلات التلفزيونية والصحفية .. وفي كل مرة كنت أجدني قبالة العيون نفسها .. العيون المعلقة بالكلمة .. تحاول بعشق وشغف ان تخترق قشرتها الخارجية لكي تمضي الى الجوهر والمغزى فتعانق الحقيقة في أقصى حالات ألقها وتكشفها ...

كنت في أعقاب كل ندوة أو محاضرة أتلقى سيلا من الأسئلة ... وعندما أبلغ حافات الإعياء أجمع قصاصات الورق التي يكتب عليها الحضور أسئلتهم وأضعها في جيبي .. وأقول لهم أنني سأحملها معي الى بلدي .. فما من شيء يثير اعتزازي كهذه القصاصات .. إنني أعرف جيدا كيف أتعلم منها .. وكيف أتجاوز بصدقها وعفويتها ، عجزي وقصوري.

كثيفة خصبة ومتنوعة كانت الأسئلة التي تثار في ختام كل محاضرة .... ما الذي يدل عليه هذا ؟ كنت أسألهم .. ما الذي يريدون أن يقولوه سوى أنهم كانوا معي في كل كلمة ...

ولدى كل منعطف .. وأنهم منذ البدء حتى المنتهى كانوا يبحرون معي على المركب نفسه لا ينفلتون أو يشردون .. ومن ثم فهم يريدون ، مثلي تماما ، جوابا مقنعا على كل ما أثارته الرحلة او عرض لها وهي تمضي الى غايتها في بحار الدنيا ..

كانت المحاضرات تنصب على التاريخ وإعادة كتابته وتفسيره .. على المنهج ... على أسلمة المعرفة ... على الحضارة والفقه .. وعلى الأدب والفنون ... وثمة محطات لالتقاط الأنفاس في أمسية او جلسة قراءات شعرية .. نبعد فيها قليلا عن جدية العلم وصرامته ، لكي نسيح قليلا في منعطفات الوجدان ...

ها هنا .. السودانيون كلهم شعراء .... يتدفق على شفاههم غنائيا عذبا ... يحفظون منه الكثير ... ذاكرتهم الشعرية قل نظيرها بين الجماعات والشعوب .. المقولة أو الحكمة المصوغة في بيت او بيتين او مقطع شعري .. تجيء دائما في اللحظة المناسبة شاهدا على مقتضى الحال .. يعرفون تماما كيف يرفعون خطابهم الشعري في اللحظة المناسبة .. وما من دعوة على الغداء او العشاء إلا وتتبادل فيها القصائد والأبيات ..

السودانيون ما بين شاعر مبدع او منشد جيد يعرف كيف يتغنى بالشعر .. وهم في الحالتين يتعاملون بصدق وعفوية مع جماليات الأداء الشعري .. ولذا كان يتدفق على ألسنتهم سائغا عذبا ...

من لم يكن شاعرا ... فإنه سيجد نفسه في السودان مرغما على ان يدخل مملكة الشعر ... وان يصير واحدا من عشاقه ومريديه ...

المرأة السودانية تملك هي الأخرى حضورا مشهودا في ساحة الفكر والإبداع .. في محاضراتي لدى طلبة الدراسات الأولية كانت أحيانا الأكثر عددا .. في مقاعد الدراسات العليا كانت تسأل وتناقش وتعترض وتضيف ... في الندوات العامة كن يتدفقن من كل مكان مهما بعدت الديار لكي يشاركن في الاستماع والحوار.

لا زلت أتذكر إلحاح رئيسة اتحاد المرأة السودانية وعدد من معاوناتها على أن اخصص لهن محاضرة أو أمسية .. تدفقن في اليوم الموعود بأعداد كبيرة جئن من كل مكان رغم الموعد المتأخر في الليل ، رغم تنائي المسافات والديار .. كنت ألمح توقهن الفريد لمتابعة ما يقال .. وكنا يسجلن الملاحظات ولا يكدن يتركن صغيرة ولا كبيرة .. والاسئلة التي أثرنها في أعقاب المحاضرة دلت على وعي متأصل في دنيا الأفكار وصراع الثقافات والمعتقدات ... وعلى رغبة أكيدة في أن ينزل الاسلام في شرايين الحياة الفكرية والثقافية لكي يقول كلمته ..

ومن وراء هذا كله كنت ألحظ في المرأة السودانية شيئا ما لحظته في أي قطر عربي أو إسلامي اتيح لي ان ازوره او امر به مرورا سريعا ، اللهم إلا في المغرب الشقيق.

إن المرأة السودانية كانت قد اجتازت منذ زمن بعيد وبقوة التقاليد الإسلامية نفسها ، أية عقدة أو حساسية ... وهاهي الآن تنحدر من نسل الأجيال الأولى القادمة من عصر الصحابة .. والتابعين ، واثقة بنفسها وخصائصها وقدرتها على العطاء .. فاعلة في صميم الحياة ... عاملة في قلب العصر .. مشاركة في صياغة المصير .. تكتب وتحاضر وتناقش وتملك حضورا مدهشا في ساحات الفكر والعطاء والإبداع.

سيختصر هذا الطريق على التجربة السودانية .. وهي تتعامل مع ما يسمى خطأ بقضية المرأة او معضلة المرأة .. فليس ثمة في الحياة الإسلامية .. إذا أردنا الحق .. قضية او معضلة تخص المرأة .. وهاهو ذا المثل الواقعي المشهود في الشارع السوداني .. في المدرسة والجامعة والمنتدى والدائرة .. وفي كل خلية من خلايا الحياة السودانية.

المرأة المسلمة حاضرة ..بكل التزامها .. الديني والأخلاقي والاجتماعي والحضاري .. فليس ثمة أيما فاصل أو ثنائية ، تحت مظلة الإسلام ، في تجربة المرأة وخبرتها ، ما بين الديني والأخلاقي والاجتماعي والحضاري ..

(٦)

يتصل بي الأخ مدير جامعة (أفريقيا العالمية) في الخرطوم يطلب إلقاء محاضرة على طلبة الدراسات العليا ، ولقاء مع الأساتذة لتعميق التعارف ... أرحب بالعرض ... انها فرصة طيبة للاطلاع عن كثب على واحدة من حلقات الخبرة السودانية الواعدة ... ان تقوم مؤسسة معرفية بمستوى جامعة في توجيه خطابها العلمي الى عموم أفريقيا ... إذا كانت السودان هي طريق العروبة والإسلام الى أفريقيا ، فإن التحقق لن يكون بالأماني والأحلام .. لابد من ترشيد الخطوات وإقامة مؤسسات تأخذ على عاتقها مهمة التواصل مع الأفريقي وتعميق اللقاء بين الطرفين ... لقد كان الطريق مفتوحا .. دائما .. لكن يدا عاقلة مدبرة لم تمتد لكي تشد على أيدي الأفريقي وترفع إليه خطاب هذا الدين بقوة الآليات المعرفية ... لكي تجعله أكثر توحدا مع شقيقه العربي.

الآن الكل على قدم سواء .. تماما كما هو الحال زمن النبوة المدهش حيث يصير بلال الحبشي مؤذنا لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) .. وحيث يختار النبي المعلم أرضا أفريقية لخلاص المضطهدين من أتباعه ..

ثمة فجوة أو خندق عميق أقامه الاستعمار والصهيونية لعزل العربي عن السلم الأفريقي .. وتجيء التجربة السودانية لردم الحفرة اللعينة .. وتعديل الوقفة .. وإعادة الوضع الى نصابه ... الآن تبدو مؤسسة كجامعة أفريقيا العالمية .. واحدة من محاولات قد تزداد عددا وغنى

وعطاء بمرور الزمن للإعانة على هذا التوحد المرتجى الذي تفرضه ضرورات العقيدة والجغرافية والحضارة .. فضلا عن المصلحة الصرفة.

في مكان منعزل ، تعمره الخضرة والأشجار الظليلة ، عند الأطراف الجنوبية للخرطوم ، تقوم هذه الجامعة التي تكافح بصمت .. دونما جلبة او ضوضاء .. فتتلقى الأفارقة والسودانيين معا ... ومع الأفارقة والسودانيين طلبة من أنحاء شتى من العالم ... لكن تظل الساحة الأفريقية شغلها الشاغل.

يستقبلني المدير بشخصيته المحببة .. يعرفني على الأساتذة الذين سبق ان التقيتهم والتقوني على صفحات الكتب والمجلات .. وهانحن الآن يجمعنا مكان ولحد تظله الألفة في الله والمحبة فيه ... يا الله .. ما أروعها من محبة .. انها تعلو على صنوف العلائق والمودات في هذا العالم .. تملك طعما فريدا يجعلك تحسّ أنك تعرفهم منذ عشرات السنين ..

نتجه سوية الى قاعة المحاضرات .. كان طلبة الدراسات العليا ينتظرون .. هيئة أمم إسلامية تضم جناحيها على طلبة من شتى الأقطار .. كانت المحاضرة عن قيمة الخطاب الأدبي والفني الضائع في ديارنا ، وضرورة تحفيزه وهندسته وإعادة صياغته من أجل توظيفه في صراع العقائد والثقافات .. ان مؤسسة حيوية كجامعة أفريقيا العالمية .. حري بها ان تأخذ زمام المبادرة وان تجد في الأدب والفن ، جنبا الى جنب مع العلم والمعرفة ... فرصة للتحرك صوب أفريقيا التي تنبض بالعشق والفن والجمال ..

نؤدي صلاة الظهر في مسجد الجامعة .... مسجد كبير فاره يتسع لمئات المصلين .... لدى رفع النداء للصلاة يمتلئ بالمصلين .. هاهنا أيضا تجد نفسك قبالة أمم الإسلام كلها تؤدي الصلاة وسط إحساس غامر بأخوة الإسلام التي تذوب فيها وتتصهر كل الفوارق والحواجز .. وتزول كل المتاريس والجدران .. فيصير العربي والأفريقي .. الأسمر والأسود .. النوبي والزنجي .. جسدا متوحدا .. وروحا متفردة تتجه الى الله الواحد سبحانه .. رب الجميع.

بعد أداء الصلاة يطلب المدير ان ألقي كلمة .. فأوجزها بدقائق معدودات .. انه الإنجاز .. الفعل الحضاري الموصول الذي بدأ به هذا الدين كلمته الأولى في غار حراء ... وظل بعدها يتدفق فاعلا سخيا .. قادرا على الحضور والتشكل في قلب العصر من أجل صياغة عالم يليق بالإنسان.

والسودانيون ، اللحظة .. وهم يحفرون الصحراء .. ويشقون في رمالها العطشى منذ آلاف السنين نهري الرهد والكنانة .. من أجل إرواء الأرض المتيبسة .. إنما يستجيبون لتحديات اللحظة الراهنة ... زمن الحصار الغربي الفاجر الذي يتطلب أمنا غذائيا .. وهاهم الآن على مدى سنوات قلائل من عمر ثورتهم الوليدة يحققون الوعد .. بينما الحصار ماض الى زمن لا

يعلمه إلا الله ... ولن يكون فكه بالتوسل الى الآخر ولكن بإرغامه على ان يتوسل هو إلينا لكي تقدم له الغذاء يوم ان يعضه الجوع بنابه وبعز عليه الرغيف.

بصحبة أحد الإداريين أتجول في منشات هذه الجامعة الفريدة ... المكتبة العامرة التي تكافح لاحتواء كتب أكثر .. وورشة التدريب الفني التي تخرج الكوادر الوسيطة في ميادين النجارة والميكانيك والكهرباء ... والمطبعة الحديثة التي تعد بتحفيز حركة النشر على مستوى الكتب المنهجية والدوريات ..

(٧)

يقلني أحد الأخوة الى جناح الإعلام في منظمة الدعوة الإسلامية .. يرحب الأخ المسئول ويقدم عرضا موجزا لفكرة المنظمة وأنشطتها ... والآن قال لي : ستشهد مقاطع لعروض تلفازية عن الجهاد من أجل تحرير الجنوب.

شعب يدافع عن وحدة أرضه وديارة .. أقول في نفسي .. ماذا في ذلك ؟ التاريخ أعطى السودانيين جواز سفرهم عبر الرحلة الطويلة الى المستقبل ، مواطنين في بلد واحد ... يخفق بالرضا ويتوق الى حياة آمنة سعيدة تكسر حاجز الخوف والجوع ... فماذا في ذلك ؟

لكن (الآخر) لم يرد لهم هذا ... والدوافع كثيرة ... والأسباب أكثر انكشافا من ان يجهد الإنسان نفسه للبحث عنها.

على السودان ان يدفع ضريبة عمقه الجغرافي في أفريقيا السمراء ... والتاريخ لا يخطئ .. كما ان الجغرافيا التي تشكل أحد أضلاعه الثلاثة لا تخطئ هي الأخرى ... فهذا الدين الذي شق طريقه بمحبة الى هذه الأرض .. كان يحمل منذ اللحظات الأولى أخوة الإنسان للإنسان تحت خيمة الله الكبيرة .. تزول في نبضه وتمّحى كل الفواصل والسدود ... فليس ثمة عربي وزنجي .. الكل تشبثوا بحبل الله المتين وبدأوا رحلة الصعود من الجاهلية العتيقة الى الدنيا الجديدة التي تليق بالإنسان والتي أريد لهذا الدين ان يصنعها حيثما امتد ظله ... أولئك الذين اثروا البقاء على أديانهم لم يرغموا على اعتناق الإسلام .. هم يعرفون هذا جيدا ... إنها خبرة عشرات القرون ... وهي أكثر من كونها معرفة ... انها تجربة تذاق وتلمس وتسمع وترى .. فليس ثمة غير الإسلام من يقدر على ترك من لا ينتمون إليه يختارون العقيدة التي يشاءون ويظلون عليها .. ولكنه (الآخر) الذي لا يسمح بهذا .. أتذكر للحظات بيت الشعر الذي طالما استشهد به المفكر الجزائري (مالك بن نبي) رحمه الله وهو يتحدث عن ثنائية النحن والآخر ..

وعينـــــه دائمـــــا تنـــــادي مجـــــرم عـــــالم الكبـــــار

وأتساءل ... بيني وبين نفسي : هل تسمح أمريكا مثلا بانفصال بعض ولاياتها الجنوبية بحجة انتمائها الى أصول أسبانية أو مذهب كاثوليكي ؟ هل تسمح لولاية ذات أكثرية زنجية ان

تفك ارتباطها بالولايات المتحدة وان تصنع مصيرها على هواها ؟ ما الذي فعلته قبل أقل من سنة في إحدى الولايات التي أعلن زنوجها غضبهم واعتصبوا ضد التفرقة العنصرية التي لا تزال تعمل في أمريكا كالمنشار !!

وهكذا وبهذه الرؤية المنفعية (البراكماتيه) المزدوجة التي لا تملك دينا ولا أخلاقا انغرز النصل الحاد في الجسد السوداني المتوحد فراح ينزف دما .. والقصة طويلة .. عمرها عشرات السنين . والاستعمار البريطاني الذي سبق الطاغوت الأمريكي ، لا يرحم ، وهو عندما يغادر بلدا ما لا يتركه لحال سبيله ... دائما كان يزرع فيه قنبلة موقوتة تنفجر في اللحظة المناسبة لكي تشعل الحرائق وتنفث الدخان لعشرات السنين وربما مئاتها.

أخذ شريط الفيديو يدور ، أرتال المجاهدين تندفع لسحق المؤامرة وتطهير الأرض ، وحماية وحدتها وهويتها ، ... متطوعون من كل مكان في السودان الكبير ، من الوسط والشمال .. والشرق والغرب .. من المدارس والمعاهد والأسواق والمزارع والشوارع والأرياف والجامعات ... تدفقوا كالسيل الطامي فيما أطلقوا عليه عام العبور.

عندما يصر شعب بأكمله على تجاوز المحنة ومعانقة المستحيل ، فإن هذا يكون .. إنه الاستمرار الطبيعي لكلمة الله الفاعلة ... وستار قدره في التاريخ والمصير ... والتحقق ممكن .. والأهداف البعيدة تطوى مسافاتها بدقائق ولحظات ، ويتم العبور دائما الى الضفة الأخرى ، عبر الدم والحزن والفجيعة والهول ... لكنه يحمل .. أبدا ... الوعد بيوم يسود فيه الأمن ويلتقي المواطن بالمواطن على كلمة سواء.

مقطع ما استوقفني .. التداعي الذي يجرني بعيدا في معظم الأحيان .. يتوقف هو الآخر ، للحظات .. ماذا ؟ لقد استطاع المصور التلفزيوني ان يلتقط صورا وأحاديث لمجاهدين سيقدر لهم ان يستشهدوا بعد ساعات .. كيف تم هذا ؟ لا أحد يدري .. ولكنني سأظل أتذكر ذلك الضابط الشاب الملازم ... الذي بعث برسالة الى أمه يقول لها فيها ... لا تحزني فالموعد الله .. والهدف الذي اندفع إليه غال عزيز ... وهو يتطلب ثمنا وأنت تعرفين ذلك جيدا .. أنت علمتني إياه ... سأستشهد بعد لحظات ، او ساعات .. أنت حملتني الأمانة وأوصيتني ألا أرجع إليك كرة أخرى فلا تحزني.

بعد ساعات قلائل يستشهد الملازم الشاب .. الكاميرا الفذة تتابعه وهو يجتاز النار ويسقط صريعا .. أحاول ان امسك دمعتين في عيني .. ان أحبسهما هناك فلا أستطيع ... أعرف جيدا أنني إذا أطلقت لهما العنان فإن سيالا من الدمع سيمطر بصمت ... ومع ذلك فإن ثمة إحساس بالتطهر والتخفف من الحزن والأسى .. وربما الإثم .. يمنحه البكاء ..

أشد على يدي الأخ مدير الإعلام وأنا أمسح عيني بظاهر كفي معزيا نفسي بأن يوم الخلاص قريب .. قريب جدا ... وأن العبور .. قبل ان يكون اقتحاما صعبا لتحديات جغرافية

المكان ، فإنه قدرة مذهلة على تجاوز جغرافية الذات والتحرر من أسرها .. والانطلاق من ثم صوب الأهداف الكبيرة ... يومها ستأمن كل الأمهات في ديار السودان على أبنائها .. يومها لن يكون ثمة خوف .. لن تكون هناك قلوب تنطوي على اللوعة المشكومة بقوة الإيمان ... لا تجد طريقها لأن تتحول الى صرخة جزع تنطلق من بين الضلوع ... مدومة في فضاء الحزن الذي لا قاع له ...

الأم هي السودان نفسها ... وابنها الملازم الشاب هو كلمة الشهادة التي أريد لها منذ لحظات الإسلام الأولى ان تكون ستارا لقدر الله وشاهدا على العالم الوضيء المتوحد الآمن السعيد الذي جاء هذا الدين ليقيمه ..

(٨)

يوم الجمعة .. في مسجد الجامعة .... والخطيب يتحدث عن زيارة البابا للسودان بعد أيام قلائل بدعوة من القيادة السودانية .. يجتمع في المسجد كل جمعة حشد من المثقفين ، يستمعون الى خطبة تمس أكثر الأحداث سخونة وحضورا .. البعض يقول بأن هذا المسجد هو (بارومتر) السياسة السودانية منذ زمن بعيد.

بدون صراخ يتحدث الخطيب كأنه يعرف جيدا ان المثقف المسلم ليس بحاجة الى صراخ .... وأنه يريد بدلا من ذلك تصاميم فكرية وتعليمات راصدة لما يجري في ساحات العالم .. ان أجهزة التوصيل الصوتي قد حسمت المسألة منذ زمن بعيد فلم يعد خطيب الجمعة بحاجة الى ان يرفع عقيرته بأكثر مما يجب فيتلف أعصاب المصلين .. الخطبة يمكن ان تكون محاضرة هادئة مترعة بالاستدلال والمقارنة والاستنتاجات المقنعة ..

يتحدث الخطيب عن الزيارة القادمة ... حدث الأسبوع هي ولا ريب ، وربما حدث الموسم كله ... غريب ان تدعو قيادة إسلامية ممثل الكاثوليكية في العالم ، والانفصاليون في الجنوب يرفعون الصليب لتدمير وحدة السودان .. بعض المستمعين كان مندهشا ... تحت وطأة السؤال الملح .. كيف ؟

بعد أداء الصلاة قام أحدهم معترضا .. يحاول ان يستمد دليلا فقهيا يدين دعوة البابا ويعتبرها (خطأ) بشكل من الأشكال .. ينسى هذا الرجل وقلة من الذين استفزّت الدعوة وجدانهم الديني ، ان رسول الله صلى الله عليه وسلم استقبل في مسجده بالمدينة وفدا نصرانيا من كبار القساوسة قدم من نجران .. ينسى أيضا ان عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) طالما التقى ممثلي النصرانية في هذه الكنيسة او تلك لكي يريهم أية سماحة ينطوي عليها هذا الدين ولكي يصل معهم الى كلمة سواء ..

دعوة للمشاهدة الميدانية ... إذا صح التعبير .. لقد دعي البابا ليرى بأم عينيه ما يجري في الساحة ، لا ما تقوله الأنباء التي اعتادت التلفيق ، او الإعلام الذي ينتفخ دائما على حساب الحقائق فيحاصرها ويضيق عليها الخناق ..

والخطيب لم يشأ ان يدخل في معركة جدلية قد لا تصل الى نتيجة .. ثمة مسلمون مغرمون بالجدل فيما حذر منه الرسول (صلى الله عليه وسلم) .. وتجاوزهم هو الجواب الوحيد ..

أي بلد يطلب من أعدائه الذين يستميتون لتدمير وحدة الأرض وسلخ جزء عزيز من الوطن ، من أجل توظيفه لأقطاب الطاغوت العالمي استعماريا كان أم صليبيا أم صهيونيا ... يقول لهم ... تعالوا الى كلمة سواء فليس ثمة غير الحوار السلمي والتفاوض المفتوح من أسلوب للوصول الى الأهداف التي تتوخاها الأطراف كافة ؟؟

أي بلد يقول لقوى الاستكبار العالمي التي لم تتطهر بعد من نزوعها العدواني أننا على استعداد للتفاهم .. لتجاوز كل العقد والحساسيات وتراكمات التاريخ القريب والبعيد .... شريطة ان تكفوا عن التآمر علينا ... وان تعطونا الفرصة لأعمار الأرض وتنمية الحياة ؟

أي بلد يقول للبابا ، زعيم الكاثوليكية في العالم ، تعال ، لكي ترى بأم عينك علاقة المسلم بالنصراني وتعايشهما المشترك الذي ما عرفته تجربة أخرى في العالم خارج دائرة الإسلام؟

أي بلد يقول لعلماء الدين المسيحي من أمريكا وكندا وفرنسا وبريطانيا وإيطاليا وروسيا وألمانيا والسويد وكوريا والدول الأفريقية والفاتيكان ومجالس الكنائس العالمية : تعالوا الى كلمة سواء في مؤتمر للأديان حيث يخاطبهم القس فيلوثاوس ، راعي كنيسة الشهيدين القبطية قائلا : "إننا في السودان لا نميز بين المواطنين في الحقوق والواجبات والتوظيف بسبب الدين ، وإننا لا نكتب نوع ديانة المواطن في الأوراق الرسمية (البطاقات او جوازات السفر) ولا نفرق بين الناس والديانات بسبب الأسماء .. لقد احتفلنا بعيد الميلاد المجيد وازدانت قلوبنا ببهجة الذكرى ... وعلى نفس المستوى تحرك المسيحيون في عيد الفطر يشاركون إخوانهم المسلمين فرحتهم .. لقد كان باب الإعلام مفتوحا أمامنا ولم يزل ، وكل هذا وحد القلوب نحو تأكيد نموذجية للتعايش والإخاء والتواصل الاجتماعي في سوداننا المتميز ولم يحدث ان تحولت كنيسة الى مسجد .. ولم يعتد احد على أية مؤسسة دينية ، ولقد أعطت ثورة الإنقاذ المسيحيين مكانا بارزا في الإذاعة والتلفزيون والصحف .. عندما نشعر ان شيئا ما يمس فكرنا المسيحي نتحاور وبالحوار نصل الى القرار ، كما حدث بالنسبة لقضية الزي الإسلامي وعدم إلزام المسيحيات به .. والعمل السياسي مكفول للجميع ..".

أشياء وخبرات كثيرة أخرى يلمسها المرء وهو يعاين عن كثب ما يجري في السودان .. معطيات من المحبة والنبل والسماحة تتدفق كشلالات أفريقيا من أجل أن تغسل كل

المرارات والضغائن والأحقاد وترتفع بالتعامل بين الإنسان والإنسان الى سويته التي أرادها له الله سبحانه ورسله الكرام .. عليهم أفضل الصلاة والسلام.

(٩)

قبل مغادرتي السودان بيومين كنت مدعوا من كلية القران الكريم في مدني لإلقاء محاضرة هناك ..... انطلق فجرا بمعية أخي الدكتور عباس محجوب عميد كلية الآداب في جامعة القران الكريم بأم درمان .. ومصور تلفزيوني من المركز العالمي لأبحاث الإيمان ..

جنوبا باتجاه مدني ، والنيل يتلامع عن بعيد ، والشريط الأخضر الذي يحف به لا يكاد يملأ العين .. وألتفت الى الدكتور عباس : أين سلة غلال العالم التي طالما تحدثتم عنها ؟

يضحك كعادته بصوت عال : انك لم تر شيئا بعد ، هذه مجرد (سلاطة) تسبق وجبة الطعام.

بعد ساعتين نكون هناك .. الاستقبال المترع بالمحبة .. والأخذ بالأحضان على الطريقة التركية .. ووجبة الإفطار التي أغراني سمكها المقلي فرحت التهمه بشراهة جاوزت حدود اللياقة ومطالب ... (الاتيكيت) .. مشكلتي أنني أحب السمك الى حد العشق .. ويبدو ان عميد الكلية وعددا من أساتذتها لحظوا ذلك فسحبوا كل الأطباق التي تحتوي سمكا ووضعوها أمامي .. قبالتي تماما ... وكأنهم يقولون بلسان واحد : كل ، بينما انصرفوا هم الى أصناف الطعام الأخرى ..

ما كنت أدري أنني بهذا أجني على نفسي ... ولكن ما الحيلة ؟ لقد أتخم السمك معدتي وضيق الخناق على أنفاسي وكاد يخرج من أذني .. والمشكلة أنني على موعد مع محاضرة مطولة بعد دقائق ... فعندما تضيق أنفاسي يصير جهد الإلقاء مضاعفا وأكافح من اجل التقاط الهواء النقي وإعانته على الوصول الى مكانه في اللحظة المناسبة لكي أقدر على مواصلة الإلقاء.

كانت السرادقات قد أقيمت في الباحة الخارجية قبالة المنصة تماما .. وبدأ الطلبة والمدعوون يتدفقون على المكان ... ها هنا أيضا يلحظ المرء حضورا مؤكداً للمرأة السودانية ... مترعا بالشوق للمعرفة ... شجاعا صريحا ... غير متردد .. ولا وجل قبالة الحقائق التي يتحتم ان يكشف عنها النقاب.

ثمة مناقشات خصبة تدور بعد الانتهاء من المحاضرة التي حاولت ان تقدم ملامح منهج جديد أكثر ملاءمة ، في التعامل مع حضارة الإسلام في أروقة المعاهد والجامعات .. ومع المناقشات المباشرة سيل من قصاصات الورق التي تنطوي على حشود الأسئلة والمداخلات ..

لم استطع الإجابة عليها جميعا بسبب إعيائي .. وقبل ان أنهض قائما يلحّ علي الدكتور عباس محجوب ان ألقى قصيدتين أو ثلاثا ... ومن بين المدعوين تقدمت فتاتان على استحياء ... قدمتا لي عنوانهما وطلبتا ان ارسل إليهما بالبريد نسخا من القصائد التي ألقيتها ... فيما بعد عندما عدت الى بلدي أرسلت القصائد فهل تراها وصلت ؟

والآن .. فإن الموعد قد حان لزيارة مشروع الجزيرة .. واحد من أكبر المشاريع الزراعية الجماعية في العالم .. وأكثرها عطاء ..

كانت البداية في المركز الإعلامي للمشروع حيث تمت مشاهدة فلم تلفزيوني وشرح لأحد القائمين عليه .. بعدها انطلقنا الى (الميدان) نفسه .. وجها لوجه .. قبالة مساحات من الأرض .. الخضراء .. لها أول وليس لها آخر .. القطن والذرة والقمح والرز والشعير .. ومحاصيل أخرى تزرعها وتسقيها وتنميها وتسهر عليها وتحصدها وتقدمها للجوعى والكادحين .. يد سودانية خالصة استطاعت في لحظة ما ان تفك ارتباطها بالغرباء .. بالعلق الذي يعرف كيف يمتص النسغ بصمت .. وان تقوم على حماية مصيرها بأذرعها ..

ها هو ذا طرف من محاولة التحقق بالأمن الغذائي الذي يقيم الدول والإمبراطوريات .. ويسقطها .. ها هي ذي الورقة التي تعرف دول الغرب الكبرى كيف تلعب بها بمهارة لكي تمسك بأعنة الشعوب ومصائرها وتسوقها صوب ما تريد هي لا ما تريده تلك الشعوب.

لقد قدرت الإرادة السودانية في سنوات قلائل على تحقيق الأمن الغذائي وبذلك أوجدت القاعدة التي تمكنها من إحباط مناورات الخصم رغم ان هذه المناورات انعطفت في مسالك جديدة من أجل تضييق الخناق على التجربة وسد السبل أمامها للإفادة من فائضها الغذائي والحصول على العملات الصعبة الضرورية للبناء والأعمار ..

ها هي ذي السلة التي كنت تبحث عنها .. قال لي الدكتور عباس محجوب .. وهو يشير بكلتا يديه الى الأرض الخضراء ..ان بمقدورها ان تقدم عطاءها ليس للسودانيين فقط بل لأفريقيا وربما لمساحات واسعة من العالم الجائع الذي يبحث عن الرغيف ..

عطاء الله سبحانه وتعالى ما له من نفاد .. أقول له .. محاولا ان أملأ عيني من الخضرة الواعدة ... لكن مداخلة الإنسان تفسد أحيانا قدرة هذا الدفق الإلهي العجيب على المضي الى أهدافه ..

عندما غادرنا مدني كان الليل قد بدأ يهبط ... وما لبثت السيارة ان انعطفت بنا قليلا ذات اليمين .. واجتازت طريقا ترابيا .. الى قرية مجاورة .. سترى إحدى الخلاوي .. قال الأخ معاون العميد الذي رافقنا في طريق العودة.

بناية متواضعة من الطين والخشب ... لكنها كبيرة نسبيا وفي إحدى قاعاتها كان الأطفال والصبيان يحفظون آيات من القران الكريم بين يدي أحد معلميهم .. كانوا أشبه بخلية

نحل مترعة بالحيوية والنشاط والرغبة في التعلم ... وكانت أصواتهم العذبة تتردد متداخلة في فضاء القاعة .. ثم ما تلبث ان تغادر مدومة في الفضاء المفتوح على الليل .. والنجوم والسماء.

أحسست بدفقة إيمانية عذبة تجتاحني .. بينما كان أحد الصغار يرتل آيات من الذكر الحكيم .. وقال الأخ معاون العميد : ان الأغنياء هنا يتولون التغطية المالية لمطالب الخلاوي ... ما من صغيرة او كبيرة يحتاجها الطلبة إلا وجدوها حاضرة .. إنهم أسخياء لا يبتغون من وراء ذلك سوى وجه الله .... أقول له : لعله الامتداد الطبيعي لنظام الوقف المدهش في تاريخ الإسلام.

والخلاوي هذه .. أو خلايا النحل .. تنتشر في السودان من أقصاها الى أقصاها .. تخرج أجيالا من حفظة كتاب الله وقرائه ودارسيه .. ومع كتاب الله شيء من العلوم الشرعية ومبادئ المعرفة .. ها هو ذا المنجم السوداني الكبير الذي يعد بمستقبل تكون فيه كلمة هذا الدين هي العليا ..

البداية كانت دائما من هنا ... ثم ما يلبث الحلم ان يصير أمرا مشهودا .. أتذكر الربط التي انتشرت في أعماق الشمال الأفريقي وخرجت حشودا من المجاهدين والمعلمين الكبار ... خرجت القادة والساسة والدعاة .. غيرت الخرائط العتيقة وأقامت الإمارات والدول والممالك والإمبراطوريات .. أتذكر المجاهدين الذين كانوا ينطلقون من هذه (الأوكار) المباركة التي يلتقي فيها بتناغم عجيب العقل والروح والجسد .. الفدائيين الذين جابهوا جيوش بريطانيا وفرنسا وأسبانيا وإيطاليا ومرغوا أنوفها بالتراب ..

البداية كانت دائما من هنا .. والمنجم .. كالمشروع .. الذي مررنا به ظهيرة اليوم .. يعدان بعطاء سخي .. هذا بالغذاء الذي يمكن من إدامة الحياة وذاك بالإنسان الذي سيقدر له ان يعيد مجد أفريقيا تحت راية التوحيد ..

(١٠)

وطنك هو وطني ..

وطن كل مسلم في هذا العالم يتوق لأن يرجع اللقاء المرتجى كرة أخرى بين الله والإنسان ..

اسطنبول مرة أخرى

(١)

في وضح النهار سأطل على وجهك الجميل هذه المرة .. قلت في نفسي وأنا أتشبث بنافذة الطائرة التي أخذت تتثاقل وهي تنعطف عبر قوس كبير في كبد السماء ، لكي تختار اللحظة المناسبة للهبوط ..

السقوف القرميدية الحمراء التي تغتسل بشمس الخريف .. غابة المنائر المزدحمة المنطلقة كالسهام الى نقطة ما في سماء الله الكبيرة ... القباب المتلامعة المنطوية على الخشوع والتسليم ... طوبوغرافية الصعود والهبوط .. متلفعة بالخضرة الفاقعة المترعة بالفرح .. والبسفور الهادئ المتكتم على سره المعذب الموغل في التاريخ.

هذه كلها ، وعشرات من الأشياء ... والملامح ... والموجودات .. المبعثرة هنا وهناك .. تدعوك .. ترحب بك .. تمنحك محبتها السخية وأنت تطل عليها من فوق .. تغتسل مثلها تماما بدفق الشمس الذي يغمر الأماكن والمنعطفات والأشياء ..

منذ سنوات ثلاث جئتك في الليل ، منتظرا الوعد الجميل .. كانت تلك المرة الأولى .. كنت أتوقع ان عنفوان الدهشة وتوهجها سرعان ما سيكفان عن الخفقان بمجرد ان أجد نفسي ثانية قبالة ما كنت أحلم به دائما .. وجها لوجه إزاء الملامح والقسمات.

عندها لن يكون ثمة جديد ... وسيغتال الإلف والتكرار هذا التوق العارم للاكتشاف والالتحام.

تبين لي بعد سنوات ثلاثة ، ان هذا مع اسطنبول بالذات لن يكون ، ان تكوينها .. ينطوي على ألف طبقة وطبقة .. وان عمقها الزمني .. تاريخها .. يمنحها غورا يصعب الوصول الى قاعه أما جغرافيتها فتعرف كيف تغازل بلغتها الخاصة كل ما هو جميل باهر من الشرق والغرب ... تدعوه لكي يستريح في أحضانها.

يا الله ... كم أنت جميلة عذبة يا اسطنبول ...

في باحة المطار .. يستقبلنا حشد من الاحبة النورسيين .. يأخذ بعضنا بعضا بالأحضان .. نختزل بدفء المحبة في الله .. سنوات الفراق الطويلة .. فكأنها لم تكن ، ثمة ما يكسر حاجز الزمن والمكان .. قاموسنا الإسلامي .. مترع بمفردات الاجتياز .. ولسوف يظل المسلم الذي يعرف كيف يتعامل مع هذه المفردات ، متحررا من الأسر .. فلا شيء مطلقا .... يمكن ان يفصله عن العالم الذي يعشقه ، والأحبة الذين انتظروه طويلا .. تحت خيمة الله الكبيرة يستوي الليل والنهار ..

نجتاز دروب اسطنبول وشوارعها لينتهي بنا المطاف في فندق اليوم الأبيض (أق جون) اختيار جميل أقول في نفسي ... فليس ثمة في معمار الفكر النورسي ذي الطبقات

والأدوار إلا ما هو أبيض يعد بالفرح والمسرة والخلود ... قبالة كل البقع السوداء .... الكئيبة المشؤومة الفانية التي يريد الوضاعون ان يظل الإنسان بتخبط فيها ..

أقول وأنا اخذ أخي (الدكتور عبد الحليم عويس) بالأحضان .. هاهي ذي الثمار النورسية تتدلى لكي نقطف ونحمد الله ..

المح في عينيه الدهشة والتساؤل فأمنحه الجواب : هانحن ذا نلتقي بعد فراق السنين الطوال ... السياسات فرقتنا يا عبد الحليم .. فأحرى ان تجمعنا الكلمات ..

(٢)

يوم السبت كان فاصلا بين جمعة اللقاء وساعة الافتتاح الكبير .. استيقظنا مبكرين لكي نتناول فطورنا في بوفيه الفندق .. جميل ان تجد نفسك عند إطلالة الصباح ، وفي مكان واحد ، مع أخوتك القادمين من المغرب والجزائر ومصر والسودان ومواقع أخرى من ديار الإسلام ، وان يقف الى جوارك .. بين لحظة وأخرى ، أخ من تركيا التي تتمدد على حافات الأسود والأبيض والدردنيل والبسفور تنتظر اللحظة المناسبة لكي تنهض قائمة مرة أخرى لملاحقة الحلم الإسلامي الذي لم يكف عن الوجيب حتى تصير كلمات الله وتعاليم رسوله عليه أفضل الصلاة والسلام خبز الإنسان اليومي وعسله ومنّه وسلواه ..

نغادر الفندق حيث تنتظرنا حافلة أنيقة وضعتها بلدية اسطنبول .. عربون محبة تحت تصرف المؤتمرين .. الجو غائم ، والسحب تذرع السماء ميممة صوب مكان ما من الأناضول ، حاملة الوعد بالأمطار ..

تنطلق بنا الحافلة باتجاه اسطنبول الشرقية ... والدكتور عبد الودود شلبي كعادته يوزع كلماته وتعليقاته التي تمنح اللحظة مزيدا من الدفء والفرح ..إنه الآن يبدو أكبر كثيرا مما كان عليه قبل ثلاث سنوات فحسب .. لقد بدأ يشيخ .. أقول في نفسي .. إنه من الجيل الذي شق الطريق المعبأ بالحجارة .. والبارود ... تلقى الكثير من اللكمات والدخان قبل ان يتمكن من تسويته للقادمين ... بعضهم مات .... وبعضهم الآخر قتل .... وآخرون لا يزالون ينتظرون .. عذرهم عند الله أنهم شقوا الطريق ولم يألوا جهدا في تكسير حجارته وتعبيده.

والحافلة تصعد بنا القمة الشرقية التي تطلّ على اسطنبول حيث نحن على موعد مع بلدية الضاحية .. وضريح يوشع بن نون ... والحديقة الأنيقة ذات العبق والألوان ، والمقهى التراثي العتيق .. ثمة حشد من العاملات التركيات يتحلقن فوق مصطبة حجرية دائرية ، يرفقن العجين بخفة ومهارة ، ويضعن فيه المكسرات ثم يدفعن به الى تنانير المعدن المقوس التي تلتهب تحتها النار .. الملابس التركية الأصيلة بحشمتها وألوانها الفاقعة ... وقبالتنا تماما تتلفع

اسطنبول الغربية بردائها الشتوي ذي اللون الرمادي الغامق ، تنتظر هي الأخرى لحظة الامطار ..

نهرع الى داخل المقهى طلبا للدفء .. لم يحسب أحدنا لهذا البرد المفاجئ حسابا .. توزع علينا هناك الفطائر اللذيذة التي جيء بها قبل لحظات من فوق التنانير .. ثم ما نلبث ان نصعد أكثر باتجاه القمة حيث يثوي جثمان الغلام الذي اصطحبه موسى عليه السلام في رحلته المدهشة .. ما الذي جاء به الى هنا .. لا أحد يدري .. ولكنه على أية حال عرف كيف يختار المكان العالي لكي يأوي إليه ... واحد من الشيوخ المقيمين هناك يحدثنا عن رحلة يوشع الطويلة ونحن نحدق في واحد من أقدم الأضرحة في التاريخ .. وفي المخيلة تتداعى ذكريات موغلة في الزمن البعيد تنبض بتوق الإنسان للمعرفة .. لهتك الحجب .. واكتشاف سر الأشياء .. تحكي أيضا عن عجلته .. وقلة صبره إزاء لهفته تلك .. ثم ماذا تكون كل معارف الدنيا وكشوفها إزاء علم الله وأوليائه والمقربين من رحمته سوى هذا الجزء الضئيل المنحسر الظاهر للعيان من كتلة الجليد الكبيرة الموغلة في الأعماق !!

مدير بلدية الضاحية يستقبلنا ببشاشة .. يحكي لنا عن بعض منجزات بلديته التي تعمل مع زميلاتها في اسطنبول الكبرى كخلايا النحل في الليل والنهار ... ها هم (الرفاهيون) يطردون الكسل المعرش في خلايا اسطنبول منذ زمن بعيد .. يوم كان ... (الشعار) والصوت العالي يرغم الأيدي المتوضئة القديرة على ان تفعل وتبني مجد تركيا كرة أخرى يرغمها على التوقف !

شلبي لا يطيق صبرا على الجوع .. فيطلق سيل تعليقاته ونداءاته .. يلمحه مدير البلدية فيبتسم ثم ما يلبث ان يعدنا بوجبة غداء في مطعم تركي على ساحل البسفور لتناول السمك و(الباجة) .. يهم شلبي بالنهوض فيقول له شيخ تركي ذو لحية بيضاء كان يحكي لنا عن رحلة يوشع بن نون : على رسلك يا هذا ، فأنني لم أتم حديثي بعد !!

تنحدر بنا الحافلة كرة أخرى باتجاه الكورنيش المحاذي للبحر حيث تنتشر المطاعم الأنيقة ... وقبالتها تماما ، عبر الشارع .. يقف الباعة عند أكداس السمك الذي اصطيد قبل لحظات ينادون على بضاعتهم .. بينما يدلف المدعوون الى المطعم لكي يتحلقوا حول المناضد الدائرية الصغيرة بانتظار الطعام ..

(٣)

الحلقات النورسية تنتشر كخلايا النحل في شرايين اسطنبول .. صوت بديع الزمان .. يجب ان يظل مرفوعا .. قبالة عشاقه ومحبيه .. خطابه الذي رفعه في مواجهة إعصار المادية والإلحاد في مائة وثلاثين رسالة ، سيظل يدوم ويتصادى في كل مكان من تركيا حتى يقدر لهذا البلد العزيز ان يفيء كرة أخرى الى الله.

ندخل على رؤوس أصابعنا كي لا نقطع على الحشد المتجمهر من الشباب إنصاته لشيوخه وهم يقرؤون ويفسرون .. نجتاز المكان بصعوبة لكي نصل الى صدر القاعة .. ثمة من يترجم لنا ... الأخ (إحسان) غائب عنا .. منهمك بأعمال المؤتمر .. لكن ... هناك دائما من بين النورسيين الأتراك أنفسهم أساتذة في فن الترجمة .. يعرف الواحد منهم كيف ينقل نبض الشيخ بأية لغة يشاء ... يكفي ان تعشق النورسي لكي تنقل رؤيته الندية للظواهر والأشياء والموجودات الى كل لغات العالم ... ننصت بشغف في محاولة لالتقاط ما يريد المتحدثون ان يقرؤوه أو يقولوه .. طبقات خصبة غنية مترعة بالعطاء هي كلمات النورسي ورسائله تعرف منذ اللحظات الأولى كيف تكسر حاجز العزلة بينك وبين العالم .. بينك وبين الكون .. بينك وبين الله .. لكي تضعك وجها لوجه قبالة العالم والكون والحضور الإلهي الجليل في صيرورة الظواهر والموجودات.

يطلب أحدهم ان نعرف بأنفسنا .. باختصار يتم التعريف .. فالمحبة والقاموس المشترك .. والحلم السعيد .. هذه جميعا تختزل الطريق .. فنحن متعارفون منذ زمن بعيد .. قبل أن يتم أي لقاء.

أدور بعيني في أطراف المكان باحثا عن (سنقر) فلا أعثر عليه .. وأقول في نفسي مطمئنا : لسوف أراه بإذن الله وحينذاك سأسأله عما فاتني في الرحلة الأولى ، وظل يلح علي عبر ثلاث سنوات من الفراق : كيف كان النورسي يصلي ؟!

(٤)

يوم الأحد يكون الافتتاح الكبير ..

عندما ندلف الى قاعة (مصطفى أتاتورك) تلفنا الدهشة ، ممتزجة بقدر كبير من الثقة والاطمئنان .. ها هي ذي القاعة الفارهة .. تغص بالحضور .... لا تكاد تجد لك .. حتى في مساربها وممراتها وأروقتها الخارجية موطئ قدم.

ينظر بعضنا الى بعض وكأننا نقول بإيماءة العيون : إنهم يزدادون عددا ، بكل تأكيد وأتذكر للحظات ، كيف أنه قبل أسابيع قلائل وعبر احتفالات الرفاهيين بمناسبة مرور خمسة قرون على فتح القسطنطينية غص ستاد عصمت أينونو بالمشاركين ... نصف مليون لم تستوعبهم المقاعد فانتشروا في أرضية الملعب ينشدون ويرفعون النداء الممحض لله ورسوله قبالة سمع الدنيا وبصرها.

كان موشح (شفاعة يا رسول الله) يتصادى في أطراف القاعة .. بينما يتوافد المدعوون من كل مكان .. هاهي ذي تظاهرة أخرى عبر أقل من شهر تشهدها اسطنبول .. وهاهي ذي

الأجيال الفتية .. الأجيال المحملة بالشوق والعطش ، تفيء كرة أخرى الى خيمة الله الرحيم بعد عشرات السنين من التغرب .. والجوع .. والانقطاع ...

وتتوالى الكلمات ... ثم ما يلبث رئيس بلدية اسطنبول ان يجتاز القاعة مصافحا بحرارة وانحناءة متواضعة ودودة ، المدعوين الجالسين في الخط الأمامي .. لكي يبدأ بعدها بإلقاء كلمته ..

أنظر إليه بتمعن .. شاب بعد هذا الرجل .. لم يتجاوز الخمسين .. يتقد غيرة وحيوية .. كان قد عاد قبل أشهر قليلة من أداء مراسيم الحج ، لكي يواصل عمله في المهمة التي اختاره الأتراك لها : إدارة واحدة من أكبر البلديات في العالم وتحويلها الى خلية للنحل تعمل ليل نهار وتوصل الخدمات الملحة الى المواطنين من أقصى اسطنبول الى أقصاها ..

ها هو ذا الإنسان المسلم ، تلميذ الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام .. يضرب مثلا في القدرة على الإنجاز ... الإسلام هو بمعنى من المعاني عقيدة الإنجاز .. مشروع كبير مفتوح قبالة الإنسان والجماعة المسلمة لكي تواصل رحلة الصعود الى فوق .. الحركة في الطول والعرض لإعمار العالم .. إنهم مستخلفون في الأرض. مدعوون لإعمار الدنيا .. وكلمات الله تناديهم صباح مساء ان يغذوا الخطى ويواصلوا المشوار .. ومن تساوى يوماه ، كما يقول الرسول المعلم .. فهو مغبون.

بلدية اسطنبول أصبحت عبر أشهر قلائل وسيلة إيضاح ، إذا صح التعبير ، لقدرة المسلم على اختراق واحدة من الحلقات الصعبة ، التي يتفوق فيها الغربي في اللحظات الراهنة : الخدمات .. ومن يدري .. فقد يكون نجاح الرفاهيين هنا بالذات فرصة مؤكدة لانتشارهم وتجذرهم وكسبهم التحدي منذ الجولات الأولى.

يتحدث الرجل بمحبة عن النورسي ويشيد بالجهود التي بذلها تلامذته للإعداد لهذا المهرجان الكبير .. بعدها يجيء الدور على ممثلي الوفود .. علماء ومفكرون من شتى الديار .. اجتازوا المسافات الطوال لكي يشاركوا في الكشف عن السر المخبوء وراء الرسائل والكلمات .. يتحدثون بلغات مختلفة ، لكن النبض الذي يرفع صوت الوحدانية في مواجهة الصنمية والطاغوت .. هو نفسه دائما ...

(٥)

تبدأ جلسة العمل الأولى صبيحة اليوم التالي في قاعتين كبيرتين من فندق اليوم الأبيض نفسه ... لم تعد القاعة الواحدة تكفي كما كان الحال زمن المؤتمر السابق .. فالجمهور يتزايد

باستمرار .. والحضور الملحوظ لملاحقة الخطاب الإسلامي في الساحة التركية .... كما هو في كل ساحات العالم في اللحظات الراهنة ، حضور مؤكد ...

كل متحدث يلقي كالعادة ملخصا لبحثه ، حتى إذا ما انتهى المتحدثون من تقديم الخطوط العريضة لبحوثهم ، في سياق او محور ما من محاور فكر النورسي ، بدأت المناقشات.

القاعتان خليتا نحل .. المشاركون أكثر عددا من ذي قبل .. والحوار بينهم وبين جماهير المثقفين والعطشى أكثر خصبا ... والنقاب يكشف عن المزيد من طبقات الفكر النورسي وكنوزه .. ها قد أخذت تتشكل بموازاة رسائله المائة والثلاثين مكتبة غنية من البحوث والشروح والتعليقات ، ولسوف تسهم بكل تأكيد في تجذير هذا الفكر الدعوي المؤثر في الساحة التركية ، ونشره في الآفاق ، وثمة ما يلحظه المرء : هذا الثقل الملحوظ للأكاديمية في أنشطة المؤتمر أساتذة وطلاباً وجامعات ... إنهم يملكون حضورهم في معظم المعاهد والجامعات التركية من أقصاها الى أقصاها .. وهذا مؤشر اخر على الفلاح .. بما ان الأكاديمية هي رأس الحربة وحجر الزاوية في صراع المعتقدات والأفكار .. وحوار المعارف والثقافات في قرننا العشرين ..

في الفترات الزمنية الفاصلة بين جلسات العمل التي تستغرق يومين ، ينشط الإعلام الإسلامي هو الآخر فيلاحق هذا الباحث او المفكر .. او ذاك ، بحوار ينشر في صحيفة .. ومقابلة يعرضها التلفاز .. إنهم شباب في ريعان الصبا لكنهم يملكون طموحا مدهشا لتأكيد الصوت الإسلامي في ساحة الإعلام ، والتحقق بقدر طيب من التغطية لزمنه الذي اكتسحته أصوات العهر والرذيلة والتفكك والإلحاد ... وهم يدركون الضرورة البالغة لمهمتهم هذه ، وأولوياتها المؤكدة في موازاة الأنشطة الأخرى ، لدعمها وترشيدها ولذا فهم يبذلون جهدا مضاعفا.

ومع الإعلاميين ثمة طلبة الجامعات التركية وطالباتها .. يركضون هم الآخرون وراء هذا المشارك او ذاك لكي يوجهوا إليه سؤالا او يتلقوا إجابة ما .. تلمح في عيونهم العطش الشديد .. والتوق العارم لتلقي المزيد ... عشرات الأسئلة والمعضلات تلح عليهم ، فيهرعون للبحث عن الجواب .... هاهي ذي البداية الحقيقية ... بعدها يكون (الطريق) أكثر إضاءة والأهداف المرجوة أشد تحديدا ووضوحا.

(٦)

سيظل يوم الرحيل في البسفور في ذلك الصباح الدافئ المشمس مطبوعا في الذاكرة ، وسيظل طعمه العذب ينسرب في شرايين الإحساس .. لا تمحوه السنين .

حلم هو ذلك اليوم .. اختزلت عبر مرئياته المكثفة حيثيات الزمن والمكان ... هاهنا والمركب السياحي يندفع بهدوء عبر الممر المائي العريض ، تجد نفسك قبالة التاريخ والجغرافيا والحضارة .. إزاء الأشواق الملتهبة ، والصيحات المكتومة ، والطموح العجيب للوصول الى

حافات العالم واكتشاف سر الأشياء ... تجد نفسك أيضا وجها لوجه أمام الأسود والأبيض ، معا وهما يتصارعان للبقاء على البسفور إسلاميا آمنا سيدا وسعيدا ... او كافرا مذعورا مستعبدا وتعيسا ... بانوراما مفتوحة على مصراعيها هو البسفور بضفتيه على امتدادهما صوب الحافات الغربية للبحر الأسود .. بانوراما يعاين المرء فيها تاريخ ال عثمان الذين قدر لهم ان يمضوا بعقيدة التوحيد فيدقوا بكلماتها أبواب فينا ..

الحزن والفرح يتعاقبان على وجدان (السائح) وهو يمس المرئيات بشغف ، كتعاقب الليل والنهار ... كالشمس التي تشرق متألقة لحظات ثم ما تلبث الغيوم السوداء ان تغيبها في الظلمة ... فتكافح لكي تطل من جديد على الموجودات والأشياء ... على صفحة البحر التي تتلامع وهي تمتص الشعاع بشغف عجيب.

(أحمد عبد القدوس) الدليل الشاب الذي يتميز بذكاء مدهش وثقافة واسعة وإيمان عميق بالحقيقة الإسلامية للتاريخ التركي .. بجوهر الإيماني الصلب الذي يظل قديرا على الإشعاع رغم كل محاولات الطمس والتفتيت ، يحدثنا بتدفق عن كل المعالم والأشياء .. ويجيب بسرعة بديهة ممتزجة أحيانا بروح الدعابة ... وأحيانا أخرى بالسخرية المريرة ... وثالثة بالتمني المترع بالشوق لليوم الذي يستعيد فيه الأناضول وجهه الضائع ... فيمنح الرحلة طعما أكثر عذوبة ، ويحفر في الذاكرة صورة جيل جديد من الأتراك يتمرد على الزيف ، ويكافح من أجل استعادة هويته المضيعة والخروج من الحصار لمعانقة كل ما هو إسلامي جميل في العالم.

إذا كان من حق الابن الضال ان يرجع الى أبيه وأمه ... ان يجدهما ويتشبث بهما .. فأحرى بالأبناء البررة ان يفيئوا الى خيمة الله ورسوله التي نفوا عنها طويلا ... ان يسترجعوا كل ما استلب منهم في زمن الفصام النكد بين الدين والدنيا .. بين الحاضر والتاريخ .. بين الابن وأمه وأبيه ... باختصار لا اختصار بعده : بين الله والإنسان.

قبل ان ندلف الى المركب الذي ينتظرنا في نقطة ما عند ساحل البسفور الغربي ، تقلنا الحافلة عبر شوارع اسطنبول .. ونحن نجتاز أسوار القسطنطينية العتيقة التي يغطيها الدخان والطحلب الأخضر الغامق .. يشير الدليل بكلتا يديه الى جانب من السور .. يقول وملامح الحزن والرضا تتعاقب في عينيه : ها هو ذا !!

بحركة نصف دائرية تلامس أعيننا حافات السور وحجارته الصماء لكي ما تلبث ان تستقر عند الفتحة التي تمرق منها الحافلة ، فإذا بنا بعد لحظات قبالة (القرن الذهبي) الذي تضرب مياهه بهدوء الكتل الصلدة السوداء الموغلة في الأعماق.

ثمة حاجز من السلاسل الحديدية يصعب اختراقه.

يقول الدليل وهو يشير الى ضفتي القرن ثم يواصل :

فيما وراء الحاجز يمتد القرن الذهبي لكي يحمي بمياهه العميقة وجه القسطنطينية المطل على آسيا .. محاولة الاختراق البحري بالسفن العثمانية لإحكام الحصار كانت مستحيلة.

أكثر من راكب يتساءل : ما الذي حدث ؟ وهو يخمن في نفسه ان ثمة معجزة ما .. عجيبة من العجائب .. مغامرة من تلك المغامرات المدهشة التي تغير مجرى التاريخ .. قد حدثت .. ولكن كيف ؟

ويقول أحمد عبد القدوس :

كان على السلطان الشاب ان يجد طريقة ما لنقل السفن الى الجانب الآخر من السلاسل .. قبالة الأسوار.

ومرة أخرى يرتفع السؤال : كيف ؟

يرد الدليل وهو يركز عينيه الغائمتين في نقطة ما من الفضاء الأزرق اللامتناهي :

في الليل جاءه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .. وقف قبالته وجها لوجه وقال له وجلال النبوة يشع من كلماته :

يا محمد .. ليس ثمة طريق واحد الى القسطنطينية .. هنالك طرق أخرى .. أمامك البر ... فالبحر ليس هو كل شيء.

استيقظ مندهشا .. كان يملك خبرة جيدة بهندسة الحرب .. ومع الخبرة إصرار إيماني كحد السيف على المضي الى هدفه مهما كان الثمن ..

البعض يعرف ملحمة السفن التي اجتاز بها الفاتح سلاسل التلال المطلة على القرن الذهبي فيما يشبه المعجزات .. ويعرف كيف ان البيزنطيين .. استيقظوا يوما لكي يجدوا الأسطول الإسلامي يحكم حصاره على الأسوار وان القسطنطينية تؤذن بالسقوط ..

البعض يعرف هذا .. لكنا ما كنا نعرف هذه الرؤيا الصادقة .. ما كنا نعرف ان الرسول المعلم صلى الله عليه وسلم .. أعطى الإشارة .. همس في أذن الفاتح بكلمة السر التي وضعت بوابة أوربا الشرقية بين يديه ..

ويقول الدليل وعيناه لا تزالان معلقتين في سماء الله الكبيرة :

كان قرار السلطان لا رجعة فيه ... ووقف عبر اللحظات الفاصلة التي تسبق الهجوم الحاسم الأخير لكي يطلق صرخته المعروفة (إما ان اخذ القسطنطينية او ان تأخذني).

أحس برجفة تسري في جسدي كما لو أنني أتلقى تيارا من الكهرباء .. ويقينا ، أقول في نفسي ، إنهم جميعا .. كل الأخوة في الحافلة يتلقون الهزة نفسها.

ان محمدا ، السلطان الشاب ، يضع نفسه الآن ، هذه اللحظة بالذات قبالة الله ورسوله ، إزاء كل آبائه وأجداده الذين ضحوا وقاتلوا واستشهدوا لاختراق الجدار الأخير ...

ان عبء ثمانية قرون ... منذ لحظة استشهاد أبي أيوب الأنصاري وهو يتشبث بأعالي السور لاقتحامه .. وحتى لحظة الرؤيا المعجزة تلك ، يضغط على السلطان الشاب .. وعليه ان يقبل التحدي ..

ويقول الدليل :

كان علي الفاتح ان يعطي خمسين ألف شهيد قبل ان يحقق حلمه هذا.

تتباطأ الحافلة وهي تنحدر باتجاه الكورنيش .. لكي ما تلبث ان تفرمل قريبا من المركب السياحي الذي سيجتاز بنا البسفور ..

نأخذ أماكننا متحلقين حول مناضد دائرية ، ونوافذ المركب مفتوحة على مصراعيها قبالة اسطنبول الآسيوية الى اليمين ، وحافات أوروبا الى الشمال .. ينطلق المركب والنسمات الدافئة تلفح وجوهنا محملة بالشعاع ورائحة البحر الرطبة المنعشة .. وخلال لحظات يجد المرء نفسه إزاء الموروث التاريخي المترع .. والوعد الذي ينطوي على السر والحلم ..

عيناي تعجزان عن ملاحقة كل المرئيات والظواهر والأشياء فأجدني بعد كفاح مرير مرغما على الرضا بالقليل .. بشواهد مبعثرة من هنا وهناك .. يتمنى المرء لو يقف طويلا عند كل أثر .. لو يجوس في منحنياته وشراييه ويستمع مباشرة الى أصوات الموجودات ذاتها وهي تحكي عن كل شيء ، لكن هذا مستحيل ولا بد من الاستسلام للأمر الواقع ..

والمركب يمخر في مياه البسفور .. والدليل خشية ان يفلت منه شيء مما يمكن ان يقوله يسارع بالإشارة من إصبعه الى المرئيات البعيدة متحدثا عنها بالإيجاز الذي يسمح به الوقت : قصر دولمة باغجة المطل على حافات البسفور الشمالية حيث قتل السلطان عبد العزيز ... قصر يلدز الذي جعله السلطان عبد الحميد الى الداخل قليلا من أجل ان يكون أكثر أمنا .. معمل الزجاج الذي بناه الأسلاف والذي حوله الاخلاف الى مصنع للخمور .. المدرسة العسكرية .. مصانع السلاح .. المعهد الذي بناه النصارى عند أعلى قمة للرد على ضياع القسطنطينية وتخريج أجيال من الأتراك المهجنين سيقدر لهم ان يطمسوا لبعض الوقت ترسانة القيم وفتح المزيد من الثغرات في جسد الأمة المهزومة .. قصور فارهة وأملاك لا يحصيها عد لأثرياء اليهود الذين حملتهم الموجة المضادة الى فوق .. بينما نزلت بأبناء البلد أنفسهم الى القاع.

ثلاثون مليون دولار !

يقول الدليل وهو يشير الى أحدها .. والمركب يمضي الى هدفه باتجاه الساحل الغربي للبحر الأسود .. والدليل ينفجر حماسة وذكاء وإيمانا وهو يلاحق المرئيات ذات اليمين وذات الشمال في محاولة للحديث عن المزيد من التفاصيل والذكريات.

المتاحف والأبراج .. الحدائق الأنيقة والمتنزهات .. الطرق المتلوية والشوارع الفارهة ... الوقائع والأساطير .. الهزائم والانتصارات .. والأفراح والأحزان .. تتكاثف بشكل مدهش لكي

تجعل هذا الشريط الضيق يحكي عن كل شيء في وطن يمتد في المكان عشرات الآلاف من الأميال وتاريخ يوغل في الزمن لما يزيد عن ألف عام ..

يصمت أحمد عبد القدوس للحظات .. ثم ما يلبث ان يقول وهو يشير الى قصر متواضع يطل على الساحل الأسيوي للبسفور ..

ها هو ذا منفى السلطان عبد الحميد وسجنه الأخير الذي توفي فيه.

يزدرد ريقه بصعوبة وهو يواصل :

آخر العمالقة كان السلطان عبد الحميد .. بعده بدأت التداعيات والانكسارات .. ولم تتوقف أبدا ... حتى جعلت اسطنبول نفسها بساطا لدنس اليهود واليونانيين والإنكليز .. وفلسطين موطأ لأعداء الله والإنسان ..

وأقول للدليل محاولا ان أدفن حزني في طبقة عميقة من الوجدان .. متذكرا في الوقت نفسه احتفاليات الرفاهيين في أستاذ (عصمت اينونو) وافتتاحية النورسيين في قاعة (مصطفى كمال).

لكنهما سيعودان يا أحمد .. سيعودان بمعونة الله !!

ويتساءل أحمد مندهشا : من ؟

أجيبه وأنا أسرح في البعيد : الجد الفاتح والحفيد المعزول.

(٧)

تنفجر في الأحاسيس والوجدان ، بإيقاعها الصارم وعذوبتها المشجية المترعة بالحزن .. بالحلم .. بذكريات عصر القوة والفتح ، وتداعيات الهزائم والانكسارات .. بكلمة الله التي تزيل الحواجز وتفتح المغاليق.

منذ زمن بعيد وأنا استمع من العائدين من اسطنبول عن هذه المارشات المؤثرة ... العروض الموسيقية التي تختصر بفيزياء الصوت الجميل والإيقاع الموزون ، تاريخ بني عثمان ، لكن ان تجد نفسك قبالتها تماما ... شيء آخر .. يجعلك تفرح وتحزن .. تهدأ وتثور .. وتضحك وتبكي ..

(المايسترو) لا يعطي إشارة البدء التقليدية بعصاه للعازفين كما هو الحال في الكونسير حيث تقام الحفلات السيمفونية .. هاهنا أيضا ثمة الأصالة والتميز الذي يمنح الممارسة الجمالية وجهها الإيماني الأصيل.

ينظر الى أفراد جوقته بعينين ثاقبتين وهو يضع إحدى يديه على حزامه التركي المرصع ويمسك بالأخرى عصا التوزيع ... حتى إذا اطمأن الى استعدادهم رفع كلتا يديه .. قبالتهم تماما .. أنصت للحظات وهو ينقل عينيه في وجوههم لكي يزداد اطمئنانا ثم يهتف .. يا الله !!

فما تلبث الآلات ان تصرخ .. ويتدفق الصوت كالشلال .. وحيدا حينا ، متداخلا مع الأناشيد التركية العذبة حينا آخر ..

وأنت تنصت للعازفين تجد نفسك مع الآباء والأجداد .. وهم يخترقون أوروبا على صهوات خيولهم .. المنتصرة حينا ، او يدافعون عن شرف الإمبراطورية قبالة الروس والمجريين والصرب والبلغار واليونان حينا آخر .. ومع كل مارش جديد تكون البداية نداء (يا الله) يرفعه الموزع قبالة أفراد جوقته .. وأقول في نفسي وأنا لا أملك مشاعري من مدافعة سيال الحزن والشجن المنسرب حتى الشرايين ... آه لو ان كل ممارسة في حياتنا ، كل خطوة او فعل او إنجاز تبدأ بـ (يا الله) هذه .. إنها حجر الزاوية وبدء الطريق الصاعد الى الإحسان والإتقان اللذين الزمنا بهما رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فمكننا من قيادة العالم وتغيير خرائط الدنيا .. ثم يوم ان تراخت أيدينا وعقولنا وضمائرنا منها انحدرنا الى القاع ..

والموسيقى تصرخ .. والأخوة المنتشرون عند حافات الباحة المقابلة للمتحف الحربي ينصتون بشغف وتأثر .. بعضهم يحاول ان يمسك دمعة او دمعتين تحاولان الفكاك من الأسر .... لكنه يقاوم .. آخرون يجترون أحزانهم في طبقة موغلة في الوجدان .. لا تكاد ملامحهم تنبئ بشيء .. لكن هؤلاء وهؤلاء يظلون وهم ينصتون لهدير الطبول والأبواق .. أسرى السؤال المعذب الذي لا يرحم : لماذا ؟

ولن يكون الجواب بعيدا .. لن يكون عسيرا .. أقول في نفسي .. فليس ثمة سوى ان نبدأ كل شيء في حياتنا بـ (يا الله) لكي لا نعرف طعم الهزائم ونتجرع مرارتها كرة أخرى.

فجأة أجدني الى جوار الأخ سنقر .. أضع يدي على كتفه بحنان وأقول له : ها قد ان الأوان لكي أتلقى منك الجواب على السؤال الذي ألح علي طويلا.

كانت المارشات قد توقفت .. عاد العازفون والمنشدون بحركتهم العسكرية المعهودة .. وراء (قائدهم) لكي ما يلبثوا ان يغيبوا في ردهات المتحف العتيق.

ينظر إليّ سنقر بدهشة فأقول :

– حدثني أيها الأخ كيف كان يصلي ؟

يسألني بالدهشة نفسها :

– من ؟

– من يكون غير الشيخ بديع الزمان ؟

يجمع سنقر كل قدراته العقلية والوجدانية والحسية لكي يتذكر .. يسترجع الخبرة ويجيب عن السؤال ثم ما يلبث ان يجلس على الأرض حانيا ركبتيه واضعا يده اليمنى على إحداهما :

– هكذا ..

يقول سنقر وهو يضم أصابع يديه بعنف ويرفع السبابة التي كانت ترتجف قليلا ..

عندما كان النورسي يصعد صلاته باتجاه الذروة ، لحظة رفع التحية الخاشعة الواثقة ، المطمئنة ، المنطوية على المحبة .. والتسليم لله ... عندما كان يسلم على رسول الله ... كان ينتزع الحروف من أعمق نقطة في قلبه .. يتنقل بها في شرايين الوجدان مصعدا بها صوب التراقي واللهاة لكي تتحول الى صوت مسموع .. ومن أجل ذلك ، ولكونه يستدعي الحرف من مكان بعيد .. بعيد .. ويمضي به الى فوق في رحلة الوجد والمعاناة .. في حركة التسامي الروحي الصعبة بين الباطن والظاهر ، ومن أجل ان يكون أكثر صدقا مع نفسه .. ومع الله ومع رسوله .. من أجل أن يرفع إليهما قدر المستطاع كل ما يعتمل في نفسه من شوق وعشق ولهفة وتوق وهيمان وتشبث بالمحبوب ، من أجل ان تكون تحياته كفؤا لجلال الله .. وإسداء أمينا لأفضال رسوله عليه أفضل الصلاة والسلام .. من أجل هذا كله كان ينطق الحرف الواحد .. يرسم الكلمة الواحدة على شفتيه ببطء محاولا ان يمد المسافة بما يجعلهما تقولان كل ما عندهما.

أسأله وأنا أكافح لوقف سيال الدمع بعد إذ رأيته هو نفسه يبكي وهو يتذكر الأستاذ ، ويحاول بصعوبة بالغة ان ينقل طريقته المستحيلة :

- كيف كان ذلك يا سنقر ؟
- يصعب علي إذا أردت الحق ان أصور لك الأمر كما كان يتحقق بالفعل لحظة كان الأستاذ يرفع (تحياته) ولكني سأقربها إليك ...

يقرأ سنقر التحيات وركبتاه لا تزالان مطويتين ، وقبضته مكورة وسبابته ترفع شهادة التوحيد وهي ترتجف :

(التحيات لله .. التحيات لله والصلوات والطيبات .. السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ..).

هاهو ذا يحاول ، بصعوبة بالغة .. ان يقلد أستاذه فيمط الأحرف والكلمات وهو ينتزعها من قلبه انتزاعا لكي يمحضها الصدق والعشق .. والرجاء ... ترى .. هل قدر سنقر على أداء المهمة ؟

هل أجاب عن السؤال ؟

كل ما أعرفه أنني رأيت نفسي ، عبر تلك اللحظات المشحونة .. أكتشف ربما لأول مرة كم تنطوي الصلاة الإسلامية على طبقات شتى من حلاوة الروح وطعومها وجمرها ... وتوقها وهيامها وتعلقها بالمحبوب .. وكيف تكون "التحيات" بحق ذروة التصعيد .. البؤرة التي تجمع

فوتونات الروح المتدفقة .. وأشعتها المتلألئة في نقطة واحدة .. تعرف كيف تحرق وتضيء في الوقت نفسه ...

أتذكر ما قاله الصديق الناقد الدكتور بسام ساعي في أكسفورد قبل ست سنوات وهو يتساءل عن ذروة الصلاة ، ثم ما يلبث ان يجيب :

"التحيات" حيث يجد المسلم نفسه في نهاية الرحلة ، وجها لوجه قبالة جلال الله وحضور رسوله المعلم ، فيرفع إليهما التحيات وهو يتذكر ويرى بأم عينيه آلاف المنح والمنن التي قدماها لكل المسلمين في العالم .. وان لها ان تتلقى بالشكر والعرفان ..

(٨)

في دعوة عشاء ، في المبنى الجديد لجريدة (الزمان) أجلس على غير اتفاق الى جوار الدكتور عبد الودود شلبي .. مستودع ذكريات هذا الرجل .. يجوس بك في مرارة الخمسينيات (حيث اعتقل مرتين) ووجعها وعذابها .. وهو يضحك .. يرغمك على ان تضحك معه ، لكنه لن يكون بمقدوره ان يكفك عن تلقي رشقات التعاسة كزخات المطر الأسود ، رغم أنها قادمة من عصر بعيد .. أربعين عاما او تزيد ..

أمسك بي من ذراعي كعادته وقال :

– اسمع سأحكي لك (نكتة) .. طرائف مما عشته في اليوم الأول لدخولي (الليمان).

يتدفق حديثه كالشلال فلا يوقفه أحد .. قال :

– ربطوا على رسغي قيدا يشدني الى سجين أخر ضخم الجرم .. صدر الأمر في ان نيمم وجوهنا صوب آخر نقطة في فناء الليمان ، عند جداره البعيد .. جاءنا هناك حلاق ، يمارس مهمته بآلية ودعت ارتباطها بالوجدان البشري منذ ملايين السنين .. قص شعر رأسي عن آخره ... وضعه بعنف في قبضة يدي وضغط على الأصابع .. أردت ان أتساءل لكني آثرت الصمت .. التساؤل في الليمان جنة ... جناية .. قد تتحول في أية لحظة الى جريمة تتلقى عليها أشد العقاب .. فعل بصاحبي ما فعل بي .. دفعنا بعنف صائحا :

– هيا الى الطرف الأخر يا أولاد الكلب ..

ابتعدنا قليلا ... في البدء كنا نمشي على مهل . يفاجئنا سجان بسوطه الذي يلسع ظهري كالسكين :

– ركضا يا أولاد الكلب ، وحذار ان تسقط من يديكما شعرة واحدة.

عرفنا أيضا ، ان علينا ونحن نركض ، منقطعي الأنفاس ، صوب الطرف البعيد ، ان يردد الواحد باستمرار "أنا وسخ .. أنا وسخ .. أنا وسخ .. أنا وسخ ..".

في الجهة الأخرى كان سجان ثان في الانتظار .. طويلا كجذع نخلة موغلة في السماء .. يصعب عليك وأنت تقف إزاءه ان ترى آخره ، وأن تلمح وجهه لكي تقول له كلمة وتعرف بالضبط ما الذي يريد !

بعد لحظات ، ونحن نكافح لالتقاط الأنفاس ، عرفت بقوة الإيحاء الدامي ما الذي يريده .. ثمة تعاليم وممارسات في الليمان تفصح عن مفرداتها حتى قبل ان تسأل عنها .. لكأنها تقاليد متفق عليها قادمة من آلاف السنين .. طقوس تحمل طابع القدسية ، ولن يكون بمقدور أحد إلا ان يتعامل معها باحترام.

فتحنا أيدينا التي انطوت أصابعها المتعرقة على خصلات الشعر .. (تعظيم سلام) يترافق زمنيا مع عبارة (تمام يا فندم) .. أي خطأ في التزامن هذا .. أي نقص في الشعر الذي انفتحت عنه الأصابع المتشنجة .. يجعلك تتلقى سوطا .. وأسمعه يقول راضيا كما لو كان الصوت يجيء من مكان بعيد :

– يا أولاد الكلب ..

بإشارة منه نتجه الى الزنزانة .. كوة في جدار عتيق تتقاطع في فوهتها قضبان الحديد .. نجر أقدامنا إليها جرا .. ندخل ... الظلام يطبق على الثغرة التي سنمكث فيها .. ليس ثمة ثقب واحد في الجدار الرطب ، المتعفن .. يتسلل منه الضوء .. لو كان زريبة للحيوانات لكانت أكثر احتفاء بنا .. أتذكر ان الإنسان في حالات كهذه ، ومن أجل ألا ينسلخ عن آدميته .. ألا يفقد أبعاده البشرية ويصير شيئا اخر .. فإن عليه ان يتشبث بالأمل ، ان يمسك به بشدة .. ان يتكور عليه كما تكورت أصابعنا على نثار الشعر المقصوص .. أقول للشخص الذي شد معصمه الى معصمي .. والذي جمعتني به الأقدار على غير موعد :

– اصبر فإن الصبح قريب.

كان المسكين قد انزلق ، وهو يسير على حافة السيف .. صوب الجانب الآخر المعتم الذي لا ينطوي على شعاع واحد في ملكوت مشبع بالقهر والقدم .. والظلام .. كان قد صار شيئا أخر .... أي شيء إلا ان يكون ذلك الإنسان .. الذي يحمل اسما ما .. والذي منى نفسه او حلم بيوم سعيد .. يوم يصير فيه للمؤمنين بالله ورسوله مكان في هذا العالم ...

صرخ صاحبي وهو يتميز غضبا :

– أي صبح هذا يا ابن الكلب .. إنني أراهنك على أننا لن نبقى حتى طلوع الشمس ..

ها هو ذا إذن يدخل دائرة الطقوس التي لا ترحم .. بالصراخ نفسه .. وبمفردات السجانين أنفسهم .. فلا حول ولا قوة إلا بالله ...

انظر الى (شلبي) وهو يضحك ، متعمدا ان يجعل اليوم الأول لاعتقاله طريفة تروى .. من جهتي كنت قد انفصلت عنه تماما .. وتساءلت فيما بيني وبين نفسي ، كما كنت أتساءل

منذ أربعين سنة .. منذ بدأت أعي ما يجري في أرض الله : بأي حق يتم هذا كله ؟ أية شريعة وأي قانون ؟

السؤال لا مبرر له لأن العصر الحديث أجاب عليه ... بالنيابة عنا .. لكن السؤال يظل يضغط على أعصابي كلازمة كابوسية مترعة بالإلحاح والتكرار ..

أتخيل براءة شلبي .. الذي تخرج قبل سنة واحدة من الجامعة والذي كان يحلم بيوم سعيد .. من منا لم يحلم بهذا اليوم .. اليوم الذي لا يعبد فيه إلا الله وحده .. ولا يتلقى الإنسان فيه إلا أمر الله وحده .. اليوم الذي يعود فيه الوفاق المفقود بين الإنسان والعالم والأشياء والسماوات والسدم والنجوم والأشجار والأنهار والشلالات والخلائق والأمم والشعوب .. وبين الله ..

أتذكر أيضا ان الجملة العصيبة التي تشكل فكر بديع الزمان .. نبضه وجوهره الذي تؤول اليه كل الرسائل والكلمات التي كتبها في مدى عمره كله .. وحوكم من أجلها ثلاثين عاما .. وتغرب .. ونفي ... هي هذا الحلم نفسه : ان يعود الوفاق ..

لست أدري لماذا تجعلني حكاية (شلبي) أرجع في الزمن سريعا الى الوراء .. الى الملاعب الرومانية التي كان أباطرة روما ومقربوهم يتسلون في شرفاتها العالية بما يجري في الساحة قبالتهم تماما .. بين العبيد والعبيد ... وبين هؤلاء والأسود التي جوعت لكي تخرج فتفترس العبيد ... والإمبراطور وحاشيته (فوق) يتسلون بالدم وهو ينبجس هنا وهناك .. بالقتل الدموي .. الذي يصير هواية تزيل آثار الملل والإعياء عن الإمبراطور.

ما الذي يجعل ساحة الليمان بعروضها المدمرة لكرامة الإنسان وآدميته تختلف بشيء عما كان يجري في ساحات روما ؟ ما الذي حدث .. ؟

القوط والهون والوندال يتدفقون كالجراد على روما فيجعلون عاليها سافلها ، وهاهو الجراد اليهودي يتدفق على سيناء والضفة والجولان ، بعد سنوات فحسب ، حيث لم يتحرك أحد لوقف العرض الإمبراطوري .. في الليمان ... وحيث كان الجميع يصفقون للإمبراطور .. لكي يقضم الجراد الأرض المخضرة فيجعلها حطاما ..

من عجب ان يطلب من (شلبي) وهو يحكي طرفته هذه فيدفع المتحلقين حوله للضحك .. إلقاء كلمة ختام على مائدة العشاء ..

ينهض الرجل .. قديرا في جزء من لحظة على ان يتحول الى الجد وان يلقي كلمته المؤثرة .. ثم يرجع .. وفي جزء من لحظة أيضا يواصل المتحلقون حوله الضحك العميق ..

أشرد مرة أخرى .. أتذكر لاعب كرة القدم الهولندي المعروف (رينسنبرنك) الذي ينطلق بالكرة بأقصى ما يستطيع مخترقا خطوط الخصم ، حتى إذا ما حوصر ، تحول بسرعة البرق على زاوية مائة وثمانين درجة ، باتجاه مغاير تماما ، متشبثا بالكرة ، محاولا تسليمها بأمان الى أحد زملائه.

(شلبي) يملك القدرة نفسها .. ولكن في ساحة أخرى ... ومن يدري فلعله كان يعرف مسبقا ان ما سيقوله عن يوم اعتقاله لم يكن طريفة او نكته بكل تأكيد ، وأنه ينطوي على الجد المحض ، وعلى الحزن العميق الذي يعرف كيف يضم جوانحه عليه .. ومن ثم جاءت الكلمة التي ألقاها منهيا مائدة العشاء ... استمرارا عفويا للتعاليم التي تلقاها هناك ... والتي جعلته يدخل السجن بعدها مرتين وهو قدير على الاحتفاظ باليقين الموغل الذي أفلت يومها من قبضة صاحبه، فسلخه من جلدة مخلوقا لا ينتمي في نهاية الأمر الى فئة الإنسان.

(٩)

يصعب على المرء ان يفارق الأخوة والأحبة دون ان تسقط لحظات الوداع في غوره البعيد حجارة الحزن وزخات الأسى .. في لحظات كهذه يجد المرء نفسه دائما قبالة السؤال المكشوف . بأكثر مما يجب .. الحاد كالنصل ، الواضح الذي يلح بانتظار الجواب .. ترى هل سيقدر لنا اللقاء كرة أخرى ؟!

ها نحن ذا نعود الى الأهل والعشيرة .. ولكنا سنترك هنا في اسطنبول الأخوة والأحبة .. واحدة بواحدة والسؤال المعذب يظل يدوم يبحث عن جواب ...

نؤدي صلاة الجمعة في جامع السلطان أحمد ذي العمر الموغل في الزمن ، والزخارف اللامتناهية ... والبلور الذي يحكي بلغة اللون توق الإنسان المسلم الى (السدرة) التي صعد برسول الله اليها في معجزة المعراج فغشيته ألوان لا يدري ما هي !!

ان المسجد الإسلامي لا ينفتح على مملكة الروح فحسب .. ولكنه يطرق أبواب العقل والحس ، كذلك .. لكي ما يلبث ان يضع الإنسان المسلم قبالة أعجوبة الخلق الكوني .. بأبعاده الثلاثة كاملة .. الروح والعقل والحس .... وهي تنبض بعشق الله ...

ما أحب ان اسميه دائما : الصوت التركي .. يتصادى متناغما ، عذبا حزينا .. في جنبات المسجد فيغسل رين الروح وصدأ الفؤاد ويمحض الإنسان أكثر قبالة الله ... يجعله أكثر تطهرا ونقاء .. نغادر الجامع لكي ما تلبث السيارات ان تقلّنا الى المطار ...

الغيوم الداكنة تذرع جنبات الأفق البعيد .. والسماء تسح مطرا .. والسيارات تنطلق كالسهم عبر الشوارع الفارهة ...

أكافح لكي أحيّد إحساسي فأنا لا أدري على وجه اليقين ان كنت فرحا سعيدا بالعودة الى بلدي وأهلي ، أم مهموما حزينا لفراق الأخوة والأحبة ...

يمضي أكثر من ساعة وأنا أتأرجح في منطقة الحياد هذه .. ولكن عندما أمد يدي بلهفة لاحتضان المودعين .. عندما أجد أيديهم تشد على يدي بحرارة وتحتضنني بلهفة هي الأخرى

... عندما يصل الدور الى أخي (إحسان) لا أملك نفسي من الانحياز صوب حافات الحزن والأسى وأنا أسمعه يقول وهو يحبس الدموع في عينيه ، مربتا على كتفي بمحبة :

في وداعة الله !!

(١٠)

هنا أنا ذا التقيك مرة أخرى

يا اسطنبول

بعد ثلاث سنوات من الفراق

ألتقيك مرة أخرى

أمد يدي الى ينابيعك الثرة محملا بالشوق والعطش

لكي أبل ريقي

فما أزداد إلا شوقا وعطشا

تتداخل المرئيات أمام عيني فأكاد أضيع

أريد ان المس كل شيء .. الثم كل شيء ... ولكنها تتفلت مني ..

في الرحيل عبر البسفور يطل عليّ التاريخ

فما تلبث الفواصل بين الزمن والزمن ان تذوب

معها تغيب الحدود .. التي تفصل مكانا عن مكان

وأجدني فجأة محملا بالتوق الذي يخترق الدنيا للوصول الى حافتها القصية

يجتاز اللحظة الراهنة ... موغلا في الماضي ..

مكافحا من أجل ان يجعل ما هو كائن

هو نفسه ما كان .. وما سوف يكون

ها هي ذي قصور بني عثمان ..

تتوجع متشكية من الوحشة والفراغ ..

في يوم ما كانت الدنيا كلها هاهنا على ضفاف البسفور ..

البهجة والفرح والوعد الذي يمنح عطاءه بسخاء عجيب

وكان الناس يجيئون من مشارق الأرض ومغاربها ..

مؤملين ان يرووا ظمأهم الى العشق الذي يختزل حيثيات الزمان المكان

ويحمل كلمة الله الى الإنسان في قارات الدنيا

فهل ستستردين دورك الضائع وتعيدين الكرة يا اسطنبول ؟

الرحيل الى مكة .. والمدينة

(١)

عندما يجيئك النداء .. وقد استكملت الأسباب ، عليك ان تلبي ... وإلا فإن الأمر الإلهي قائم لحظة يشب الإنسان عن الطوق ... ولكن العوائق كثيرة ، وهي في معظم الأحيان فوق الاستطاعة وحينذاك يضطر المرء الى الانتظار.

ولقد انتظرت طويلا .. وما بين عام ١٩٦٦م حيث حزمت الحقائب ونويت الذهاب ، وعام ١٩٩٨م حيث استجبت للنداء ... أكثر من ثلاثين عاما جرت عبرها أكثر من محاولة .. ولكن لم يكتب لأي منها التوفيق.

العوائق كثيرة ، وقطار العمر يجري .. وثمة خوف من ان تصل المحطة الأخيرة دون أن تكون قد لبيت النداء .. ما الذي ستقوله حينذاك لله ورسوله ؟

وهكذا ، وفي اللحظة التي انفتح فيها الطريق عزمت متوكلا على الله ، ونادت كل حجيرة في روحك التي تلاشى فاصل الألم بينها وبين العالم : يا الله ! وقلت في نفسك : هذه رحلة ليست كالرحلات ، تتمحض لها نفسك وروحك ، فإنها الفرصة المتفردة التي منحها الله سبحانه عباده كافة لكي يغتسلوا ويتطهروا ويعودوا كيوم ولدتهم أمهاتهم ، وقلت أيضا : ان الكرم الإلهي لا حدود له ، والسعيد السعيد هو من يعرف كيف يتلقى الهبة ويتخذها نقطة دفع وانطلاق الى الأعلى .. وان المؤمن مشروع دائم للاجتياز والصعود .. وأن هذه ... هذه بالذات ، قد تمنحه الكثير في رحلة الطموح الذي يليق بمطالب الإيمان.

كنت قد اعتمرت ثلاث مرات .. مرتين في عام ١٩٨٠م والثالثة بعدهما بعشر سنوات .. ولكن الحج تجربة أخرى غير العمرة ... أكبر وأثقل وأكثر امتدادا في الزمان والكان والخبرات .. وإذا كانت العمرة لقمة عذبة سائغة المذاق ، فإن الحج هو الوجبة الدسمة بكل ما تنطوي عليه من أطايب وصنوف !!

ومع ذلك فلقد هزتني رؤيتي للكعبة ، أول مرة ، حتى الأعماق ولقد بكيت يومها كثيرا .. انتابني إحساس من يجد نفسه فجأة قبالة الحلم وهو يتحقق كثيفا ، ملحوظا ، مؤكدا .. يملأ السمع والبصر والوجدان . وكان الطواف سيالا روحيا غسلته دموع العين .. فشف الوجد وأصبح للحظات نقيا كالبلور .. ولم أكن أحس وأنا أدور حول الكعبة بأنني أمشي على الأرض ولكنني كنت أطير .. محمولا على ألف جناح وجناح منسوج من خيوط الأشواق ..

الشيء نفسه يتكرر وأنا أضع خطواتي الأولى في مسجد رسول الله ... أعطني قلبا يتسع لأحزان الكون كله .. يا إلهي ... قلت في نفسي وأنا أحس بوجع في قلبي لم يستطع سيل الدموع ان يخفف قبضته التي اعتصرته بقوة .. كنت كمن يكافح للانطلاق من أسر الجسد .. وهيهات

.. وهناك قبالة قبر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .. استجمعت شتاتي وللحظات ، وأنا أخاطبه .. وأجهش بالبكاء .. أحسست أنني أتطهر حتى الأعماق وأتوحد ثانية قبالة كل أحزان العالم .. وقلت في نفسي : هنا بمقدور الإنسان ان يتحقق بالحرية ، فليس ثمة بعدها خوف او حزن .. وقلت أيضا .. ان عطايا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .. كثيرة .. كثيرة جدا .. وهذه إحدى عطاياه .. ورحت أردد .. والوجد يتقاذفني : عليك أفضل الصلاة والسلام يا رسول الله ... (عليك أفضل الصلاة والسلام).

(٢)

انطلقت الحافلات الثماني في صبيحة يوم غائم .. من أحد الأحياء الغربية لمدينة الموصل ... كان الطريق البري طويلا وإجراءات الأمن والتفتيش على الجانبين العراقي والسعودي معقدة صعبة .. ولقد استغرق ذلك ستة أيام بلياليها لاجتياز طريق لا يتجاوز الثلاثة آلاف من الكيلومترات .. اضطررنا عبرها للمبيت في البراري ... ومدن الحجاج .. كأنها محاولة لاختبار قدرتنا على الصبر قبالة ألف نداء ونداء يومض من بعيد .. يدعونا لكي نبل الأشواق الملهوفة لمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبيت الله الحرام.

لكن ما كان يخفف من هذا كله ، ذلك الانسجام والتوافق بين ركاب الحافلة الثلاثين والتزامهم المدهش بسلوكيات الحج وأخلاقياته ، رغم صدور نغمة نشاز ، بين الحين والحين ، تنفلت من هذا الرجل او ذاك ، لكنها ما تلبث ان تخفت وتغيب لكي لا يتبقى في جل مساحات الطريق الطويل إلا التوافق ، والمحبة ، والعطاء والانسجام.

وكنت أقول لجاري في الحافلة ، الطبيب الذي كان مغرما (بقزقزة اللب) للاستعانة به على طول الطريق :

عجيب أمر هؤلاء الذين يهدرون فرصة العمر بكلمة نابية او سلوك معوج او استجابة ملتوية لإغراءات الاثرة على حساب الآخرين .. ترى ما الذي سيضيفه إليهم الحج سوى (اللقب) الذي يبدو أنهم جاءوا خصيصا للحصول عليه والعودة به الى ديارهم حيث تمارس الخطيئة المزدوجة بحق أنفسهم .. وبحق الآخرين تحت غطاء اللقب الجميل .... هذا فضلا عما هو أدهى وأمر ... إعطاء الإشارة للعقارب والحيات من خصوم هذا الدين للطعن في قدرته على تهذيب النفوس !

كنت الحظ الحزن والأسف على ملامح معظم الركاب وهم يصدمون بين الحين والحين بنماذج كهؤلاء .. وكنت أسمعهم يرددون بينهم وبين أنفسهم : لا حول ولا قوة إلا بالله ، متحصنين بقوة إيمانهم ضد كل اغراءات الشيطان التي تنفخ في الدم والأعصاب نار الرغبة في

الرد العنيف الغاضب على هؤلاء الذين لم يقدروا على تجاوز أسر الرفث والفسوق .. والجدال ، وهم ذاهبون لأداء فريضة العمر وفرصته الفريدة ..

قبالة أولئك كان ثمة صنف أخر من الذين محضهم الإيمان للود والمحبة والبر والعطاء .. كانت البسمة الحانية تغمر ملامحهم ، والكلمة الطيبة معلقة على شفاههم .. وكانت أسعد اللحظات هي تلك التي يتقدمون فيها لإسداء خدمة أو معونة .. أو حل مشكلة .. أو تقديم لقمة طيبة لهذا المسافر او ذاك.

لقد تحقق هؤلاء بمطالب الحج قبل ان يحجوا ، أما أولئك فانهم وقعوا .. ابتداء .. على التنازل عن مكاسبهم مع الله ورسوله .... لأنهم على ما يبدو لا يريدونها أو يرغبون فيها !!

(٣)

في عرعر الجاثمة على الحدود العراقية السعودية ... التحمت بقوافلنا تلك القوافل القادمة من أعماق آسيا والقوقاز والسهوب الروسية المطلة على سيبريا . جاءوا من هناك محمولين على أجنحة شوق ليس كالأشواق .. لقد اعتقلتهم الشيوعية الملحدة أكثر من سبعين عاما .. ما كان يحج يومها منهم سوى أنفار لا يتجاوزون أصابع اليدين ، وجلهم من جواسيس السلطة وأزلامها .. أما الآن .. وبعد انهيار الاتحاد السوفيتي الذي لم يفلت من قبضة سنن الله في الخلق ونواميسه في التاريخ .. الآن ينطلقون بحرية لتحقيق حلمهم المحبوس في الوجدان .. عشرات السنين.

ورغم استمرار شراذم الأحزاب الشيوعية في حكم معظم الجمهوريات الإسلامية المنفكة من أسر الاتحاد السوفيتي المنحل ... بدعم من روسيا ومباركة أمريكا ، من أجل قطع الطريق على القوى الإسلامية من تسلم مقاليد السلطة والعودة بالبلاد والعباد الى دينها وعقيدتها وتراثها وذاتها ... رغم هذا فإن أفواج الحجيج راحت تتدفق من كل مكان في تركستان وكازاخستان وأذربيجان .. وقرغيزيا وأوزبكستان .. وهم يلبسون زيا واحدا من السراويل الفضفاضة والقمصان المنقوشة ... والقبعات المزينة بالخيوط الذهبية الصفراء .. وكانت اللحى البيضاء تزين وجوه شيوخهم ، أما الشبان فكانت ملامحهم توحي بالإصرار على الوصول الى الهدف الذي استعصى عليهم ، طويلا ، وهاهم الآن يرحلون للتحقق به ومعانقته.

ومن القوقاز تدفق الداغستانيون والشيشانيون والانكوش ، وكان الشيشانيون بالذات أكثرهم حيوية وسعادة .. لكأنهم وهم يلوحون بأيديهم عبر نوافذ حافلاتهم التي كتب في واجهتها : (الحجاج الشيشان) .. يريدون أن يقولوا للناس جميعا : ها قد جئناك يا رسول الله بعد ان صدقنا معك الوعد ، ورفعنا راية الجهاد قبالة واحدة من أعتى طاغوتيات العالم ..

ها قد جئناك يا رسول الله بعد أن زرعنا هناك في ديارنا عشرات الآلاف من الشهداء وبعد ان قدم رئيس جمهوريتنا المتواضعة نفسه فداء لهذا الدين الذي تمحض له من أجل كسر يد الطاغوت من عدوّ الله ...

كانوا يلوّحون بقوة .. ويوزعون ابتساماتهم المطمئنة على جموع الحجيج الذين كانوا يردون عليهم بعبارة تكاد تكون واحدة (بارك الله فيكم وأمدكم بعونه).

(٤)

مررنا بتيماء التي تخترقها مساحات واسعة من الخضرة ذات العطاء السخي .. وتدفقت الذكريات القادمة من عصر الرسالة كزخات المطر ..

بعد فتح خيبر توجه الرسول (صلى الله عليه وسلم) الى فدك المجاورة فصالحته على مناصفة أراضيها .. أما وادي القرى فقد أعلنت العصيان فحاصرها الرسول صلى الله عليه وسلم .. ودخلها عنوة وترك مزارعها بيد أصحابها اليهود مناصفة عليها أسوة بما فعله مع خيبر وفدك .. ولما بلغت يهود تيماء أنباء الانتصارات الإسلامية صالحوا الرسول (صلى الله عليه وسلم) على الجزية وأقاموا في بلدهم.

إنه (عليه الصلاة والسلام) لا تجرفه إغراءات القوة .. لا يبعده وهج الانتصارات عن مواقع الحق والعدل والسياسة الحكيمة .. فها هو ذا يوظف كفاءات اليهود الزراعية لدعم مالية دولة ناشئة كانت بأمس الحاجة الى المال لمجابهة التحديات .. وما أكثرها ..

لكن اليهود الذين جبلوا على الغدر ما لبثوا ان اغتالوا أحد صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم : عبيد الله بن سهل الأنصاري .. ومع ذلك فإن الرسول صلى الله عليه وسلم وأبا بكر (رضي الله عنه) من بعده أبقياهم على ما كان قد اشترط عليهم ، ولا سيما وأنهما لم يكن لهما من العمال ما يكفون عمل الأرض.

لقد كان معظم يهود الجزيرة من الوافدين عليها هروبا من اضطهاد الروم .. وكان يفترض في ذرارايهم تقدير ضيافة العرب لهم حق قدرها ... ولكنهم جبلوا على الغدر ، فما وجدوا وسيلة لطعن المسلمين ورسولهم (صلى الله عليه وسلم) .. إلا استخدموها ، وكان لا بد من العقاب لإعادة الأمور الى نصابها الحق ...

واليوم يحلم اليهود بإعادة عقارب الساعة الى الوراء ... وهذا وحده يكفي لإدامة جدار الرفض والعداء الذي يحمي الوجود الإسلامي من التآكل والدمار ، ويمنع أعداء الله من المضي لتحقيق أهدافهم التي يعلنها لسان الحال حينا ولسان المقال حينا آخر .... والخرائط المعلقة على جدران الكنيست حينا ثالثا ...

وقلت في نفسي ... والحافلة تجتاز الشارع الرئيسي العريض الذي يخترق تيماء باتجاه الجنوب : لقد فقدت أمتنا الكثير عبر القرن الأخير بسبب اصطراعها مع حيثيات الجغرافيا والتاريخ .. ترى .. أما ان لها ان تعدل وقفتها قبل ان تخسر ما تبقى تحت مظلة التطبيع الذي هو نقيض كل مقولات الجغرافيا والتاريخ .. فضلا عن العقيدة ؟ !

(٥)

وصلنا مشارف مدينة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فجرا ، وألقينا عصا الترحال في مخيم (الحج) لكي ما نلبث ان ننطلق ، جماعات جماعات ، وقد نفذ الصبر وتأجج عرام الشوق، لزيارة مسجد الرسول (صلى الله عليه وسلم) ، وإبلاغه التحية المعتقلة في الوجدان سنوات وسنوات.

أنيقا ، مهيبا ، فخما ، مترعا بالنور والضوء والندى ، مضمخا بأريج الروح وعطر المحبة وومضات الإيمان ، محاطا بالجلال والجمال ....

والدخول عليك يا رسول الله يفوق الدخول على الأمراء والملوك والسلاطين والرؤساء والحكام ، رهبة وخشية وخضوعا ، فأنت تملك المحبة التي لا يملكون عشر معشارها .... محبة تعرش في حنايا القلب وتجري في شراييه ، وتأسر الروح والفؤاد.

الدخول عليك ليس كالدخول على أحد من الناس .. وكيف يكون ذلك وأنت رسول الله المبعوث لإخراج الناس من ضيق الدنيا الى سعتها ، ومن جور الأديان الى عدل الإسلام ، ومن عبادة العباد الى عبادة الله وحده ؟!

تحية المسجد تحت القباب المتلالئة ، بين الأعمدة الرخامية المتوجه بالنحاس الأصفر المتلامع ، والى جوار مئات الآلاف من المصلين حيث تحس حتى أعمق نقطة في وجدانك أنك أصبحت جزءا من أمة واحدة .. تطوي جناحها على عشرات الأقوام والجماعات والشعوب والأعراق والألوان ، ولكنها بقوة هذا الدين تظل أمة واحدة ، تنبض بالعشق الواحد وتحمل الوجع الواحد ، وتنوء بالهم الكبير ... وحيث تصير الصلاة وعيا جماعيا تذوب فيه الذات وتتلاشى وتنحمي الفواصل بين الإنسان والانسان لكي ما يلبث الجميع ان يصبحوا "حالة" متوحدة من الوجد والمحبة والخضوع والتسامي ، وهم يصعدون دعاءهم الى الله جل في علاه.

وثمة النوافل التي يتمنى المرء ألا تنتهي هاهنا حيث يكون لها مذاق ليس كالمذاقات .. كيف وهي تؤدي في مقام القرب والرضا من الله ورسوله ؟

وما ألبث ان اهرع لزيارة قبر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وأشعر للحظات أني أتخفف من ثقلة الجسد وأنني أغدو نضوا يأكله العشق فلا يكاد يبقى له على شيء !!

تنهمر الدموع بصمت وأنا أقف على بعد خطوات من قبر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وأبلغه تحيات كل الذين حملوني الأمانة ، هناك في مدينتي ، وقالوا لي وأعينهم تذرف بصمت : أبلغه عنا السلام وقل له : جزاك الله خير ما جزى نبيا عن أمته.

فهل ثمة يا رسول الله أمة أحبت رسولها كما أحبتك أمتك ؟ وهل ثمة أمة سمت أبناءها باسم رسولها الغالي كما سمت أمتك أبناءها ؟ وهل ثمة أمة في الأرض تذكر رسولها وتدعوا له وتصلي عليه ، في كل لحظة وان ، كما تفعل أمتك ؟ وهل ثمة أمة حفظت تفاصيل حياة رسولها بكل دقائقها ومنحنياتها ، ووثقتها بمداد الأقلام ، وبصمتها على صفحات العقول والقلوب كما فعلت أمتك ؟ وهل ثمة نبي تلقى من التقييم والتكريم ما تلقيت أنت يا رسول الله بدءا من كتاب الله الذي أعلن الخطاب الإلهي : ﴿**فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا**﴾ و﴿**إِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ و﴿**إِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ**﴾ مرورا بمئات الكتاب والمؤرخين والأدباء والمؤلفين والباحثين على مدى أربعة عشر قرنا ، قالوا فيك ما قالوا حتى بلغ أحدهم ، وهو نصراني أمريكي لا علاقة له بالإسلام من قريب أو بعيد ، يدعى (مايكل هارت) ان يبحث جاهدا وفق منظومة من المعايير الصارمة ، عن أعظم مائة شخصية في التاريخ سماها (المائة الأوائل) وأن يمضي خطوة أخرى فيختار أعظمهم على الإطلاق فتكون أنت يا رسول الله ؟!

أقف قبالتك نضوا مترعا بالشوق والحزن والمحبة والإجلال تتقاذفني جموع الزائرين وأنا متسمر في مكاني أذرف الدموع بصمت متذكرا هذا كله .. فتقر عيني ..

إذن فإن أمتك ، على تقصيرها ، لم تجفك يا رسول الله ، فها هم أولاء مبعوثوها إليك ، يجيئون لزيارتك كل عام ملايين من مشارق الأرض ومغاربها ، لكي يبلغوك السلام ويقولوا لك : أنهم لا يزالون على العهد ... فالحمد لله ...

أية أمة أخرى في العالم فعلت ما تفعله وستفعله مع ملوكها وزعمائها !!

(٦)

غادرنا المدينة صباحا وما هي إلا ساعة أو نصف ساعة حتى نزلنا في (بيار علي) لكي نحرم من هناك ونبدأ الحلقة الأولى في مسلسل الحج الذي لن ينتهي إلا عند طواف الوداع ...

الصعود المكافح الى فوق ببذل جهد روحي وعقلي وجسدي موصول كما هو شأن الخبرة الإسلامية في شتى مناحي الحياة .. الوفاق والتصالح بين قدرات الإنسان ، حيث في المذاهب والأديان الأخرى تصطرع وتتقاتل وينفي بعضها بعضا فيضيع الإنسان ويفقد وحدته وائتمانه الذاتي المنشود.

منذ اللحظة سيتواصل الرحيل يوما بعد يوم وساعة بعد ساعة .. ولحظة بعد أخرى .. سفرا وتنقلا وطوافا وسعيا وقياما وقعودا وصلاة وإقامة ودعاء.

منذ اللحظة سنقول للنوم وداعا ، وسنصل الليل بالنهار للتحقق بفرصة أكثر ، تقربا الى الله سبحانه وابتغاء لمرضاته ...

فمن يستطيع ، وقد جعل ثواب الصلاة في الحرم مائة ألف ضعف ، ان يضيع الفرصة الذهبية ، وألا يمحض جهده ووقته للمزيد من الصلوات ؟

ومن يستطيع وهو يضع خطواته الأولى لبدء حياة جديدة متطهرة من كل آثام الماضي وذنوبه ، ومحاطة بعفو الله ومغفرته ، ألا ينطلق بقوة من خط البداية تلك ، من أجل أن يتمكن فيما تبقى من العمر المحدود ، من الوصول الى نقطة النهاية والفوز بالجائزة الكبرى ؟ من ؟

(٧)

ألقينا عصا الترحال في مكة المكرمة ليلا .. قبل دقائق كانت الحافلات تجتاز بنا الجسور المعلقة على الشوارع الرئيسية ... ومن هناك كانت ترى في الدروب المنخفضة المفضية الى الحرم ، مئات الآلاف من الحجيج وهم يتدفقون على الحرم ، أو يعودون منه .. بملابسهم البيضاء .. وسحناتهم المتغايرة ، التي تعلن عن أممية لم تشهد لها البشرية مثيلا.

السكينة والائتمان الذاتي ، والفرح والاطمئنان ، تفيض من النفوس والأرواح التي تاقت على مدى العمر كله لهذه اللحظة التي تغدو الآن أمرا واقعا .. تصير الكعبة ، والصفا والمروة ، وماء زمزم ، والمسجد الحرام .. وعرفات ، وجبل الرحمة ، والمزدلفة ، ومنى ، والعقبات الثلاث .. على مدى أبصارهم وخطواتهم.

ها هم الآن يتوحدون ليس مع أنفسهم فحسب ، ولا مع بعضهم البعض كأمة واحدة متميزة فحسب ، إنما مع الماضي الموغل ، مع اللحظات التاريخية ... المؤثرة .. مع ذكريات الإيمان العزيزة الغالية وهو يصارع الكفر والطاغوت .. مع الأنبياء المكافحين عليهم (أفضل الصلاة والسلام) .. وهم يمهدون الطريق لإزاحة الوثنية والتحقق بعبادة الله وحده.

ها هم الآن ، وقد جاءوا من كل فج عميق ، ينطلقون وراء إبراهيم وإسماعيل ومحمد (صلوات الله وسلامه عليهم) .. لكي يهتفوا بشعار **(لا إله إلا الله)** الذي هو جوهر النبوات وروحها وهدفها.

ها هم الآن يؤكدون بهذه التظاهرة الفريدة ، صدق الاستجابة الربانية لنداء إبراهيم وإسماعيل وهما يرفعان القواعد من البيت ويدعوان ﴿**رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ**

التَّوَّابُ الرَّحِيمُ(١٢٨)رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ..

وما أن استقر بنا المقام في السكن الذي أعد لنا على بعد عشرين دقيقة من الحرم ، حتى هرعنا الى هناك ، محمولين على جناح الشوق واللهفة ، لتأدية طواف القدوم والسعي بين الصفا والمروة.

ورغم ان الليل كان قد تجاوز هزيعه الأول فإن وفود الحجيج كانت تتدفق على الحرم من كل الأبواب .. ها هنا ليس ثمة فاصل بين الليل والنهار .. تماما كما أنه ليس ثمة فاصل بين الإنسان والإنسان .. الكل يصير كائنا متوحدا ، مترعا بالعشق واللهفة ، يطوف ويسعى ويجأر بدعائه الملتاع ....

إنه فناء من نوع غريب .... فناء ينطوي في اللحظة الواحدة على الأنا والآخر .. التحقق الذاتي في أقصى وتائره ، والاندماج في الآخرين في أروع صورة .. إنها معادلة لا تكاد تجد فرصتها إلا هنا حيث الجميع ينبضون بالتوق الروحي الواحد .. ويتطلعون معا الى لحظة الغفران والوعد المرتجى ..

كانت النداءات تنطلق على دفقات من هنا وهناك وهي ترفع نداء إبراهيم وإسماعيل ومحمد .. ومئات الأجيال التي قدر لها ان تلبي أمر الله وأن تصل الى هنا : " لبيك اللهم لبيك ... لبيك لا شريك لك لبيك ... ان الحمد .. والنعمة .. لك والملك ... لا شريك لك " ...

فهل ثمة كلمات ، على هذا القدر من الإيجاز ، تستطيع ان تعبر عن مفهوم التوحيد وحاكمية الله سبحانه وقيمومته على مقاليد السماوات والأرض ، وتقدم في الوقت نفسه حمدها وشكرها لله جل في علاه الواحد الأحد ... ومالك الملك .. المعطي الذي لا حدود لسخائه ؟ هل ثمة كلمات موجزة كهذه تعبر عن هذا كله .. ؟

طواف مئات الآلاف من القادمين من فجاج الأرض ، حول الكعبة ، يتصادى بإيقاع متفرد يثير الدهشة ، مع طواف الذرات في مساراتها الصغرى ، ودوران السدم والمجرات والكواكب والنجوم في مساراتها الكبرى ... الكل يطوف حول المركز الواحد .. مستجيبا للنظام الواحد ، ملبيا أمر الله الواحد الذي لا راد لكلماته ، مسبحا بحمده ، كل بلغته الخاصة التي ترفع خطابها الخفي او المعلن قبالة جلال الله.

لقد أريد للطواف ، كما راح يتكشف لي عبر لحظة التجربة ، ان يضع الإنسان طواعية واختياراً في مسارات الأشياء والموجودات والظواهر الكبرى ... هذه تجد نفسها مرغمة على الاستجابة ، والإنسان يسوقه اختياره الى المصير نفسه ، لكي ما يلبث وهو يدور دوراته السبع ،

ان يتوحد مع الذرات والمجرات ، وأن يدخل مملكة الله ، متحررا من أيما شيء ، ممحضا للطاعة والإذعان.

وصرخت .. وموجات الحجيج ودفقات الأشواق تتقاذفني ... جل جلالك يا مبدع الملكوت يا ذا الكبرياء .. وتقدست أسماؤك ... وقلت في نفسي : هاهي لحظة التجربة فكن أنت والكائنات والأشياء حالة متوحدة ، قبالة الله ! فما الذي يعنيه رفع الذراع للحجر الأسود واللهفة على لمسه ، سوى أنه في بدء الأمر ومنتهاه ... رمز للأشياء والموجودات التي أريد لها أن تنخرط في مسيرة التوحيد الأبدية ، ونشيده الذي لم يزل يخفق بالدعاء منذ زمن إبراهيم وإسماعيل؟!

جرعات من ماء زمزم تبل الريق الذي شفه الوجد ، ثم الانطلاق لرحلة السعي بين الصفا والمروة بأشواطها السبعة التي تأخذ هذه المرة صفة الذهاب والإياب .. فكأنها تذكرنا بمعجزة الليل والنهار ... والميلاد والموت ... والانبعاث والفناء ... بالكدح البشري الموصول لإدامة الحياة قبالة تحديات العطش ، والجفاف ، وحتميات التآكل والفناء ...

إنها واحدة من أكثر المسيرات الكبرى في العالم مهابة وجلالا .. والهدف هو الله سبحانه .. بعضهم يرفع عقيرته بالدعاء .. وبعضهم الآخر يدمدم مع نفسه ، وفئة ثالثة اختارت التسبيح بصمت ... جماعات وأفراداً ... يهرعون الى النقطة القصوى .. الصفا حينا والمروة حينا .. مشاة ومهرولين .... يقفون لحظات عند البوابة التي تطلّ على الكعبة وهم يرتلون ﴿**إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ**﴾ ثم ما يلبثوا ان يواصلوا المسير ..

وسعيد من يجعل نهاية سعيه موصولة بالصلاة التي يزيدها خشوعا وخفقانا روحيا صوت الإمام العذب المؤثر وهو يتماوج بالحزن الإيماني العميق في جنبات الليل بكلمات الله ...

(٨)

في اليوم الذي سبق الذهاب الى عرفة ، انطلقت بنا الحافلات الصغيرة مساء ، عبر جولة في أطراف مكة لإلقاء نظرة على مواطن المناسك وذكريات التاريخ .. هاهو ذا جبل ثور الذي لجأ إليه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وصاحبه الصديق (رضي الله عنه) فرارا من ملاحقة المشركين .. يتسلل إليه الرسول (صلى الله عليه وسلم) في ضحى أحد الأيام ، على غير عادته في التردد على داره صباحا أو مساء .. خطوة من خطوات الإيهام والتدبير ضد أولئك الذي يريدون أن يمكروا به .. يدهش أهل الدار لمجيء الرسول في وقت لم يعتادوه .. لكنه

لا يلتفت الى دهشتهم بل يتجه الى الصدّيق فورا ويطلب منه أن يخرج ابنته من المكان ، فيطمئنه أبو بكر بأنه ليس ثمة ما يخشاه .. ويتكلم الرسول (صلى الله عليه وسلم) "إن الله أذن لي في الخروج والهجرة" .. فيردّ عليه الصديق "الصحبة يا رسول الله ؟" فيجيبه : "الصحبة" وتقول عائشة (رضي الله عنها) : فو الله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحدا يبكي من الفرح ، حتى رأيت أبي يبكي يومئذ ...

وها هو ذا جبل النور ، وغار حراء الذي تلقى فيه محمد بن عبد الله (صلى الله عليه وسلم) الكلمة الأولى من السفر القرآني العظيم الذي سيقدر له ان يعيد صياغة الدنيا .. وأن يظل الكتاب الأوحد الذي لا تتبدل كلماته ... ولا تنقضي عجائبه.

انتابتني قشعريرة هادئة انسربت رجفتها في عروقي وأنا أتذكر لحظات اللقاء الأولى ، وأتذكر معها جبهة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تسح عرقا في اليوم البارد كلما جاءه الوحي الأمين ينقل إليه طرفا من خبر السماء ...

"فجاءني جبريل" يقول (عليه الصلاة والسلام) عن أول لقاء ، وأنا نائم ، بخط من ديباج فيه كتاب فقال : أقرا ، قلت ما أنا بقارئ ، فغتني به (أي عصرني عصرا شديدا) حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال : أقرا ، قلت : ما أنا بقارئ ، فغتني به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال : أقرا ، فقلت : ماذا أقرأ ؟ فقال : ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ(١)خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ(٢)اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ(٣)الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ(٤)عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ**﴾ فقرأتها .. فانصرف عني .. وخرجت حتى إذا كنت في وسط الجبل سمعت صوتا من السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل ..

وانسربت بنا الحافلات الى أماكن شتى مما سيقدر لنا ان نمارس فيها مناسك الحج ... ونعذر أنفسنا أمام الله .. وقلت في نفسي : ان على الإنسان ان يلبي نداء الله ... وما عدا ذلك فهو من فضل الله ...

ثمة أناس يكتفون بالحد الأدنى ... بالوقوف عند السفوح الدنيا .. بينما هنالك من يواصل الصعود الى أعلى حتى تتقطع أنفاسه ... فليس ثمة بين الإنسان والسماوات العليا حدود يقف عندها أو إشارات تقول له : ها هي ذي نهاية الطريق ...

(٩)

يوم عرفة يوم القمة بكل المعايير الروحية والمادية على السواء .. فليس عجباً ان يقول رسول الله (صلى الله عليه وسلم) .. (الحج عرفة) وليس عجيبا ان يقف ملايين الحجيج قبالة جبل الرحمة ، وفي شعابه ، وهم يجأرون بالدعاء الى الله ..

إن الحج ، قلت لأخ يقف الى جواري ، هو شبكة من الترميزات التي قد تسمح للعقل بأن يخترقها ويكشف عن سرها المكنون حينا ، وقد توصد أمامه الأبواب أحيانا ، فيعجز عن إيجاد اللغة التي تمكنه من العبور .. وفي كل الأحوال فإن جوهر العبادة الإسلامية هو الاستجابة لأمر الله ، والتوجه إليه .. لكن يبقى (جبل الرحمة) بهذه التسمية ذات الدلالة الواضحة ، عنوانا مكشوفا على الحلقة الأكثر نبضا وخفقانا في مناسك الحج ... فالمسلم هاهنا يواصل رحلة الصعود الى الأعلى راجيا رحمة الله .. فما ثمة منفذ في الروح البشري يصل بين الأرض والسماء إلا وأزيحت ستائره لكي ينفتح على مصراعيه قبالة الله سبحانه ، لعله يتلقى الرحمة المرتجاة .... وملايين الأصوات تجأر بالدعاء .. "لبيك اللهم لبيك .. لبيك لا شريك لك لبيك .. ان الحمد والنعمة لك والملك .. لا شريك لك".

وقفنا خلف الإمام عقب صلاتي الظهر والعصر اللتين قصرتا وجمعتا جمع التقديم .. وراح الرجل يدعو ونحن نردّد دعاءه ونؤمن عليه.

لا زلت أذكر لحظات التوتر القصوى .. لم يكن مجرد دعاء ولكنه مزيج من التضرع والتوسل والاعتراف والشكوى .. سيال من الوجع الروحي والحزن الكبير الذي يسعى لأن يكتسح في طريقه كل الصغائر والضلالات والهموم الدنيا ، وينقلنا الى الفضاء الأكثر اتساعا .... يضعنا قبالة سماء الله الكبيرة حيث يشف الوجد ولا يتبقى ثمة إلا الإحساس بالتضاؤل والتلاشي إزاء جلال الله ...

كانت العبرات تخنق صوت الإمام بين لحظة وأخرى ... وكنا نحن من ورائه نصرخ ... يا الله ... ونجهش بالبكاء ... ويعيد الرجل رفع توسلاته ، ونرد عليه عقب كل دعاء: يا الله !!

ما من مرة في حياتي ذرفت فيها هذا القدر من الدموع كما ذرفتها يوم ذاك .. ما من مرة أحسست فيها بلذة السباحة في نهر العين ، ووجع الفؤاد ، كما أحسست يوم ذاك .. ما من مرة تطهرت فيها حتى أخر حجيرة في كياني كما تطهرت يوم ذاك ...

والتفت الى إخواني الذي يقفون الى جواري فإذا بهم يسحون دمعا .. تذكرت وأنا لا أكاد أتبينهم ، لحظات التجرد لله عبر صلوات الأجداد الكبار الذين حدثتنا عنهم كتب التراجم .. بعضهم كان يغادر السجود وقد ابتل مكانه بالدموع ... بعضهم كانت تنتابه رجفة تجعل الجسد يهتز كسعف النخيل فلا يقدر على شكمه ...

وبعضهم الآخر كان يفهق ملتاعا فلا يستطيع الركوع !!

اللحظة يتأكد لي ان هذا الذي قيل عن الأجداد ليس مبالغة .. وإنما هو حقيقة مؤكدة ... فها هي جموع الحجيج تذرف سيالا من الدموع وهي ترتجف ، وعندما كان أحدنا يلتفت الى الآخر لكي يحتضنه ويقبله مهنئا إياه على الحج ، ما كان يتبين من ملامحه شيئا .. لقد احمرت حدقات العيون ، وانتابت الرجفة كل الذين كانوا يصلون وراء الإمام ...

(١٠)

وعند الغروب بدأت المسيرة الكبرى .. الإفاضة الى مزدلفة في الطريق الى منى استعدادا لرمي الجمار عبر الأيام الثلاثة التالية ...

ثلاثة ملايين ينفرون دفعة واحدة في طريقهم الى هدف واحد .. كانت آلاف الحافلات تتهادى على الطريق في خط طويل لا يكاد يرى أوله ولا آخره ، وكانت العتمة تزحف من الأفق الشرقي شيئا فشيئا .. وأحسست وأنا أجد نفسي واحدا من الملايين التي تزحف ببطء الى هدفها تنفيذاً لأمر الله .. أنني أتوحد معهم ... مع هؤلاء القادمين من مشارق الأرض ومغاربها .. مع المغربي والمصري والسوداني والسوري والفلسطيني واليمني والخليجي ... مع التركي والإيراني والأفغاني والباكستاني والماليزي .. والاندونيسي .. مع القادمين من أعماق القارة السمراء ومن سهوب آسيا الشمالية وجبال القوقاز ... مع الألمان والإنكليز والفرنسيين الذين اختاروا الانتماء الى هذا الدين .. وجاءوا من ديارهم النائية لكي يشاركوا في مسيرة الحج الكبرى ...

وفجأة تذكرت ما كنت قد قرأته قبل أربعين سنة في كتاب (الطريق الى مكة) للمفكر النمساوي المسلم (ليوبولد فايس : محمد أسد) : "إني أراهم يمشون ويركبون ويتجمعون .. كل تلك الملايين من الحجاج بثيابهم البيضاء عبر ألف وثلاثمائة عام .... إني أسمع أصوات أيامهم وأجنحة الإيمان الذي جذبهم معا الى هذه الأرض من الصخور والرمال ... فينبض الموت الظاهر مرة أخرى ، بدفء الحياة فوق قوس القرون ، ويجذبني صفيق الجناح القوي الى مداره ، ويجذب ما تقضى من أيامي الى الحاضر ... ونتابع ركوبنا ... هاجمين طائرين فوق السهل .. ويخيل الى أننا طائرين مع الريح ، منغمسون في سعادة لا تعرف نهاية ولا حدودا .. تزعق الريح في أذني بنشيد النصر (إنك لن تكون غريبا بعد الآن ، أبدا أبدا) إن العالم أمامنا لفسيح ، وفي قلوبنا شرارة من النار التي اشتعلت في قلوب صحابة النبي .. إنهم يعرفون .. إخواني عن يميني وإخواني عن يساري .. إنهم قد قصروا عما كان ينتظر منهم ... وأن قلوبهم قد تضاءلت عبر القرون ، ومع ذلك فإن وعد الله الحق لم ينتزع منهم .. منا ... لقد سما هؤلاء الرجال فوق حيواتهم الصغيرة ... وها ان أيمانهم يدفعهم الآن دفعا الى الأمام ، كأنهم بنيان واحد ، نحو آفاق غير محدودة .. والحنين لم يعد بحاجة الى ان يبقى تافها مكتوما فلقد وجد يقظته ، وجد وعد الله الحق متمما .. في هذا الإتمام يخطو الإنسان خطوات واسعة بكل ما وهبه الله من بهاء وسناء : خطوه بهجة ، ومعرفته حرية ، وعالمه دائرة دونما حدود .... وأستدير في شدادي فأرى خلفي الألوف من الفرسان بثيابهم البيضاء .. ووراءهم الجسر الذي جئت عليه .. لقد خلفت الآن آخره ورائي ، في حين ضاع أوله في ضباب المسافات والأبعاد .."

وقلت في نفسي وأنا ألقى ببصري الى خط الأفق البعيد متابعا قوافل الحجيج التي تنساب بهدوء تحت ستار الليل : ثمة فارق يصعب قياسه بين ان تقرأ عن التجربة وان تعيشها !!

ورغم ان عبارات (محمد أسد) أدهشتني يومها ، حتى كدت لكثرة قراءتها أن أحفظها عن ظهر قلب ، فإنني اللحظة أشد دهشة وانبهارا ..

فها أنا ذا أعيش التجربة نفسها .. واحدا من ثلاثة ملايين حاج جاءوا من كل مكان لكي ينتظموا في المسيرة الكبرى ، ويتوحدوا .. رغم تفاوت البيئات والانتماءات والأعراق .. استجابة لنداء الله ودعوة إبراهيم أبي الأنبياء ....